

يوسف المحيميد

رحلة الفتى النجدي

رواية للفتيان

رحلة
الفتى النجدي

رواية للفتيان

يوسف المحيميد





ISBN 978-614-02-0535-2

الطبعة الأولى

1434هـ ــ 2013 م



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إلى نافذتين،
أرى من خلالهما الضوء:
هتون، وهيام.

الفصل الأول:
الحلم العجيب

الحكايات تتكرر على مرِّ الزمان، يموت أبطالها، ويذهبون في النسيان، لكن الحكاية تبقى حيَّة لا تموت، ترويها الجدات اللطيفات لأطفالهن قبيل النوم، وقد تتنقَّل في بيوت الشعر في الصحراء خلال ليالي الخريف الباردة، أو في مجالس الرجال في البيوت الطينية، ثم يأتي من يدوِّن الحكاية على ورق أبيض، أو أصفر كامد، أو حتى على رقٍّ جلديٍّ قديم، فتطوف بين الأيدي والقلوب، كما انتقل رقّ الملحمة الهندية العتيقة من عجوز النهر إلى بطل روايتنا هذه، ليعبر البحار والصحارى الموحشة، من يدري، فقد تتنقل حكايتنا هذه مثل هذا الرقّ المسحور من بلد إلى آخر، ومن بيت ثري إلى آخر، ومن متحف إلى آخر، ومن يدري، فقد تُحفظ هذه الحكاية الغريبة التي سأرويها لكم الآن، ذات يوم، في متحف ضخم، يرتاده البشر من كل أنحاء العالم، ومن يدري أيضاً، فقد تتنقل هذه الحكاية، من لغة إلى لغة أخرى، ولا تعود مجرد حكاية نجدية يهبُّ فيها الهواء النجدي المعتدل، فتتأرجح وهي تطير مع حبيبات الرمل الذهبية، لتموت قبل أن تبلغ ساحل البحر!.

هذه الحكاية ستعبر البحر والمحيط، كما عبر بطلها الفتى الصغير متاهات الصحارى، وأهوال البحار، بحثاً عمَّن يفسر له حلمه العجيب.

هذه الحكاية تخصُّ قرية صغيرة في نجد، قرية وادعة

وهادئة تدعى (خبّ المنسي)، تحيط بها الرمال، حتى أصبحت مجرد نقرة صغيرة في قلب الرمال المحيطة، لم يكن يمرُّ بها طريق الحجاج، فلا تكسب شيئاً مما تكسبه القرى الأخرى من قوافل الحجاج العابرين، لكنها كانت تشتهر بالرطب القليل في نخلها العالي، ومائها العذب، وأهلها الطيبين، وفتيانها الشجعان النبلاء، ثم أصبحت، فيما بعد، تشتهر أيضاً بحكاية الفتى صالح الخرَّاز الذي لحق بحلمه، ذلك الفتى الذي فشل في أن يساعد أباه في صنع الأحذية الجلدية المزركشة بالألوان، فاكتفى والده بأن جعله يلوّن الأحذية بالأصباغ الجميلة، والتي برع فيها. كان صالح مزوحاً، يحبه جميع فتيان القرية، وقد كان يمازحهم بطريقته المحببة اللاذعة: لولا جلود أبي، ومطرقته، لكان أكثركم حفاة، يا حفاة! ثم يضحك بصخب، فيضحك الفتية الآخرون.

في الليالي المقمرة، يلعب مع أصدقائه لعبتهم المحببة، حيث يطوّح أحدهم عظماً بعيداً في الخلاء، بينما يغمض بقية الفتيان، ثم يبحثون عنه تحت ضوء القمر، وما أن يعثر عليه أحدهم حتى يلتقطه ويهرب به إلى نقطة الأمان صائحاً: عظيم لاح. بينما يلحق به الآخرون محاولين الإمساك به قبل أن يصل.

هؤلاء الفتيان، كانوا يتذكرون حكاية صالح الحزينة مع مهنة أبيه، وكرهه لها، فكما كانت عادة الصنَّاع في نجد

قديماً، حرص الخرَّاز أبو صالح على تدريب ابنه الأكبر على إتقان هذه المهنة حينما بلغ الثالثة عشرة، فأخذ يصطحبه معه إلى دكانه في السوق، ويدربه على استخدام المخرز، وهو الإبرة الطويلة، التي يصنع بها الأحذية، كيف يمسك به جيداً، ويحدد النقاط المتتالية على الجلد، التي سيخترقها هذا المخرز، كي يخيط طبقات النعل، ثم كيف يصنع الشسع العلوي للحذاء. أحياناً يبين له كيف يصنع قربة الماء الجلدية، كيف يحدد حجمها، ثم يطوي الجلد، ويحدد غُرز المثقب فيه. كان صالح يغمض عينيه كلما وخز الجلد، حتى بلغ به الأمر أن أصبح يبكي كلما فعل ذلك، وحين يسأله أبوه، يجيب بأنه يحس بقشعريرة تصيب حنكيه وأسنانه، ورغم أن الأب يلمح رأسه يرتعد بغتة كلما غرز المخرز في الجلد، إلاَّ أنه كان مقتنعاً أنه سيتعلم مع مرور الوقت، في حين كان الأمر يزداد سوءاً، فأصبح صالح يتحاشى الاقتراب من السوق لئلا يلمحه أبوه، ويحاول أن يتسلل باكراً لينام قبل أن يلمحه، فيعاتبه، ولم يزد ذلك أباه إلا إصراراً على أن يرث المهنة منه.

بعد أيام من محاولات الأب أن يقوِّي قلب ابنه، وذات مغيب، بينما كان صالح يعمل وحده في الدكان، تجمَّد فجأة، ونفض الأصباغ من يده، وفرَّ هارباً يركض في الدروب الترابية، يصيح دون أن يفهمه أحد، وبعد أن قبضوا عليه،

وأعادوه إلى بيت أهله، وهدأ قليلاً، أخبر أباه بأنه سمع ثغاءً داخل الدكان، ابتسم الأب وهو يمسح على رأسه، مؤكداً له أنها خيالات يراها ويسمعها، لكن صالح أقسم له مراراً بأنه سمعها بأذنه. ورغم أن الأب لم يعد يصطحبه لأيام، إلا أن صالحاً لم يتوقف عن التفكير بالثغاء الذي سمعه، فغامر ذات ليلة، بأن ذهب في جنح الظلام، كي يفتح الدكان، ويخلي سبيل الأغنام المحبوسة داخله، فقد كان يهذي بأنه سمع ثغاءها العالي: مااااا... مااااا.

في اليوم التالي، اكتشف الأب أنه ترك باب الدكان مفتوحاً طوال الليل، فاضطر إلى أخذه إلى مطوع القرية، كي يقرأ عليه لأيام عديدة، وينفث في صدره مراراً، حتى هدأ، ونسي هذا الأمر تماماً، لكنه تجاسر ذات يوم، وقد شعر بحزن لأنه لم يعد نافعاً لأبيه، فقال له: سأساعدك يا أبي في الدكان. وبدأ يساعده في مرحلة الصباغة، حيث بدأ يتقن وضع الألوان على الجزء العلوي من الأحذية القصيمية.

كان يذهب فجراً إلى دكان الخرازة، قبل أن يذهب إلى الكتاتيب كي يتعلم القراءة والكتابة، وحينما ترتفع الشمس، وتدخل في قلب الدكان من جهة بابه الشرقي، يصل أبوه، فيذهب هو إلى مدرسته كي يتعلم القرآن والكتابة. كان يقول لأبيه، إن ذهابه إلى الدكان فجراً، يسعفه في كسب الوقت

قبل الدراسة، لكنه لم يقل بأنه لا يريد أن يرى أباه، وهو يخز الجلود بمثقابه القوي، كي لا تعود إليه حالة الهلع والخوف مرة أخرى.

اكتسب الفتى صالح من أبيه محبة الناس والترحيب بهم، وإكرامهم، ومساعدتهم، خاصة الفقراء والمحتاجين، فكان مستعداً لأن يمنح فقيراً حافياً حذاءً جديداً دون مقابل، حتى أن بعض صحبته من الفتيان كانوا يهرعون معه لمساعدة الآخرين، فكانوا يساعدون الفلاحين صيفاً في جدِّ التمر من أعالي النخل، ويتحولون إلى معاونين للبنائين، وهم يخلطون الطين والعشب، عند بناء بيت جديد لأحد الأهالي، ويسافرون بمحاصيل الفلاحين من الخضار والتمر، لبيعها في قبَّة رشيد، في بريدة، حتى عندما يهجم الوباء على قريتهم الصغيرة، ويضرب الأطفال، كانوا يتحولون إلى مسعفين جاهزين.

لكن هناك ما يفوق قدرات هؤلاء الفتيان، خاصة وقت الشتاء، حينما ترعد السماء، وتتفجر بسيل هادر، وتسيل الأودية، وتداهم البيوت الطينية الضعيفة، فيسقط سقف هنا على امرأة وأطفالها، وينهار جدار هناك، رغم أنهم يركضون في الأنحاء، يرفعون بأيديهم الطين، وجذوع الأثل الساقط، وينبشون جريد النخل المغمور بالطين والسيل، بحثاً عن طفل، أو طفلة مفقودة.

كانت الحياة رتيبة، كذلك حياة صالح الخرَّاز، كانت هادئة، يقضيها في الدراسة، والعمل، واللهو مع الرفاق، حتى حدث له أمرٌ غيَّر حياته إلى الأبد، فذات ليلة صيف، وبينما كان نائماً في سطح بيتهم الطيني، والهواء النجدي اللطيف يهبُّ على وجهه النائم، رأى نفسه يطير في السماء، يطير من غير جناحين، يطير بثوبه الواسع الفضفاض، ويرى تحته الأشجار والبيوت، ويذهل لمنظر القرى، والصحراء، والبحر، والمدن الغريبة، ثم يحطُّ فجأة في بيت مهجور، ويتحول إلى جزَّار، يقف أمام ذبيحة معلَّقة في الهواء، يشق بطنها بسكين حادة، ثم يسحب بيديه أمعاءها، ويلفّها حول ذراعه، حتى انبجست أمامه المعدة المملوءة، وانفرط روثها. وبعد أن استيقظ من نومه، استعاذ بالله من الشيطان، ثم نزل متحسساً الجدار الطيني في عتمة الدرج المتآكل، وهو يسمِّي ويستعيذ، وحلَّ رباط فم القربة الجلدية المعلقة في باحة البيت، سكب ماءً في وعاء فخاري صغير، وشرب حتى ارتوى، وفكر كيف له أن يشق بطن بهيمة بسكين حادة، ويجذب أمعاءها أيضا، وهو الذي يصاب بالهلع حينما يمسك مثقب الخرازة؟.

في الصباح التالي، بعدما خرج من الدكان، ذاهباً إلى درس الكتاتيب في المسجد الطيني الصغير، روى حلمه المفزع لصديقه ناصر الدبَّاغ، وقال بأنه كاد أن يتقيأ حينما

هبَّ من النوم مذعوراً، فما كان من ناصر، الذي يعرف صديقه جيداً، إلا أنه قال له: خيراً إن شاء الله. فسأله صالح: هل تعرف تفسيراً لذلك؟. أجابه: لا، لكن أعتقد أنك حلمت بسبب تفكيرك وخوفك من العمل في دكان أبيك؟. صمت صالح لوهلة، ثم تنهَّد: تعرف يا ناصر، أتمنى أن أبي لم يكن خرَّازاً، ليته كان مثل أبيك، دبَّاغاً، على الأقل تقتصر الدباغة على شراء جلود الأضاحي ووضعها في حفرة ماء وملح، ثم تجفيفها ودباغتها، أقصد ليس فيها تعذيباً. ضحك ناصر بقوة وهو يسخر منه: أنت فقط توسوس يا صالح، وهذي الوسوسة انتقلت من تفكيرك في الواقع إلى أحلامك الليلية.

رغم ذلك، لم يركّز صالح مع المعلم في الدرس، بل كان يفكر في لحظة طيرانه فوق، حتى وهو في طريق العودة، حاملاً حقيبته معه، كان يرفع رأسه نحو أسراب الطيور، ويقول كم هي محظوظة وهي ترى البيوت والأشجار والأطفال من الأعلى.

في الليلة التالية، تمدَّد على فراشه القطني، وجعل يتأمل النجوم المضيئة في سماء نجدية صافية، يحدّق في بنات نعش، يعدُّ النجمات السبع، وهن متحلقات، بينما أكبرهن تهمس لهن بحكاية سرّية لا يسمعها أحد، قال وهو يشير إليهن، كم سأكون محظوظاً لو أنني بجواركن، لأنصت

معكن إلى الحكاية. تذكَّر طيرانه في حلم ليلة البارحة، فانقلب على جنبه الأيمن، وهو يشغل ذهنه بتذكّر لحظات اللعب مع الفتيان، ثم قرأ المعوذتين في سرّه، نام مرهقاً، فداهمه الحلم ذاته مرة ثانية، ورأى نفسه يطير ويطير، ويحطُّ أمام الذبيحة ذاتها، فازداد قلقه في الصباح، وبات يقضي نهاره يفكر في الحلم، حتى قرر أن يخبر أباه، فما كان من الأب إلا أن طمأنه بأنه مجرد حلم لفتى يخشى من استخدام المثقاب في عمله، لكن الفتى لم يقتنع بذلك التفسير، فسأل مطوع القرية، واستوقف الحكماء العابرين، دون أن يجد تفسيراً لحلمه.

لم يكن هناك من اهتم بحلمه ذلك، سوى صديقه ناصر، الذي اقترح عليه أن يقرأ ما يتوافر في خزانة أبيه من كتب، فأعجبه ذلك، وكفَّ عن سؤال الناس والعابرين، لينكبَّ على الكتب والأسفار القديمة، لعله يجد فيها إشارة أو دليلاً، قال لنفسه بعد ثلاث ليال: لقد صدق ناصر، سأجد في الكتب تفسير حلمي. فتح خزانة أبيه العتيقة، نبش فيها، فوجد مصحف أبيه، ومسبحته، وخاتم جدته الذهبي، وصك منزلهم الطيني الذي بناه جدّه، لم يجد شيئاً يقوده إلى تفسير الحلم، عثر على بضعة كتب قديمة، بأوراق بالية، نظر في كتاب عنوانه (تفسير الأحلام) لأبي بكر محمد بن سيرين، تصفحه قليلاً، ثم التقط كتاباً آخر، ونظر في غلافه، ماذا تعني (ألف

ليلة وليلة)، كتاب عتيق جداً، تعود طباعته إلى سنة 18م، ماذا سأجد في هذا الكتاب العتيق؟ ماذا ستفعل بي ألف ليلة، وقد أربكت حياتي ثلاث ليال فقط؟ هل سأجد أحلاماً؟ هل يمكن أن أقرأ ألف حلم وحلم في ألف ليلة وليلة، كي أجد ما يشبه حلمي العجيب؟ أم أنها مجرد قصص مسلية؟. كان الفتي يسأل نفسه مأخوذاً بعنوان الكتاب. ثم وجد نفسه ينساب مع الليالي بمتعة نادرة، حتى أنه شكر حلمه العجيب، الذي قاده إلى هذا الكتاب المسلِّي.

الفصل الثاني:
الرجل ذو البشت الرمادي

في فجر الليلة الرابعة، وقبيل شروق الشمس، وبينما كان الفتى يجهز الأصباغ الملوّنة، أحس بشخص يقف خلفه، فالتفت ببطء، وإذا بمسافر غريب يلبس بشتاً صوفياً رمادياً، له لحية طويلة مصبوغة بالحناء، ويلبس حذاءً يلمع بلون الفضة، فقال له: صباح الخير! أوجس الفتى خوفاً، لكنه ردَّ تحيته، ثم ازدرد ريقه وهو يطلب منه الجلوس، كي يحضر له قهوة الصباح، فالفتى تعوّد أن يكرم ضيفه، غنياً، أو فقيراً، أو عابر سبيل.

وبينما كان الفتى يعد القهوة في زاوية الدكان، أراد أن يكسر صمت الفجر الرتيب، فسأله: لا أرى معك حذاءً معطوباً يا عمّ كي أصلحه، أم أنك تريد حذاءً جديداً؟

أجاب الغريب ذو البشت الصوفي الرمادي باختصار: لا، شكراً، لا حاجة.

ابتسم الفتى رغم وجله: لا تخجل يا عم، إن كنت لا تملك مالاً، فسأهبك حذاءً مستعملاً يساعدك على الطريق.

وبينما مدَّ الفتى له فنجان القهوة، هزَّ الغريب ذو البشت رأسه: شكراً، أنا لا أستطيع أن أشرب شيئاً.

كاد الفتى أن يسأله: لِمَ؟ لكنه كبح نفسه، وقال في تردد وقلق: هل تأمرني بشيء يا عم؟.

رفع الغريب رأسه إلى السماء، وتنهد بقوة، وقال وهو ينظر في أنحاء الدكان: أحتاج قماشاً فقط!.

شعر الفتى أن هذا الكائن الغريب ليس إنساناً، كأنه طائر أو ملاك أو ربما جني مثلاً، لكنه ليس إنساناً عادياً يأكل ويشرب، وبعد أن ابتلع ريقه أجاب: كما ترى يا عم، هذا محل أبي، وهو ليس قمَّاشاً، ولا يتاجر ببيع الأقمشة، لكنه صانع أحذية، فهل يناسبك أن تحصل على جلد مدبوغ بدلاً من القماش.

ثم استدرك وقد تذكّر قطعة قماش جديد، له ولأخيه، كانت أمه قد احتفظت بها، لتخيطها ثوبين لهما في يوم العيد: هل تستطيع أن تنتظر دقائق، كي أحضر لك قماشاً من المنزل؟.

هزَّ الرجل الغريب رأسه موافقاً.

هرول الفتى بعدما أوصى الغريب بالدكان، وحينما بلغ باب البيت، دخل بخطى حذرة، ثم فتح خزانة الملابس، وخطف القماش الأبيض، ثم هرول عائداً إلى الدكان. حينما أقبل لم يجد الرجل الغريب في وقفته التي تركه عليها، وبحث عنه داخل الدكان، فلم يجده أيضاً، واستعاذ من الشيطان، وبينما هو يجهّز الأصباغ، فوجئ بصوت الرجل: هل عدت يا بني؟. ارتعش الفتى وهو يناوله: هذا قماش ثوب العيد، لي ولأخي، خذه فأنت بحاجته الآن، ونحن سنتدبر أمرنا حينما يقترب العيد. شكره الرجل، ثم خلع فردة من حذائه الفضي اللامع، وناوله الفتى وهو يقول: هذه هدية

لك، قد تشتري بثمنها ثوب عيد لك، ولأخيك.

استوقفه الفتى، وهو يمسك بالحذاء الفضي اللامع: قل لي يا عم، هل لديك معرفة في تفسير الأحلام؟

أجابه: ربما، قل ماذا رأيت؟.

قصَّ عليه الفتى حكاية الطيران فوق القرى والمدن، والذبيحة، والروث. فهزَّ الرجل الغريب رأسه وهو يقول: خيراً إن شاء الله. الطيران علو في المكانة يا ولدي، و... و... سترى خيراً كثيراً، فقط عليك أن تسافر.

سأل الفتى بقلق: أسافر إلى أين؟

أجاب الرجل الغريب وهو يهمُّ بالرحيل: سافر في أرض الله الواسعة.

تساءل الفتى: ولكن ما علاقة ذلك بحلمي؟

قال الرجل الغريب، وقد أضاءت عينه الخضراء: دعني أسألك، أنت ابن صانع الأحذية التي ينتعلها الناس والمسافرون والعابرون، لكنك لم تسافر من قبل، صحيح؟

أجاب صالح: صحيح.

قال الغريب ذو البشت الرمادي: إذن طِرْ، الطيران في حلمك هو السفر، والعلو، فلا تتوقف طويلاً كما الأشجار المغروسة في الأرض، تحرّك، وستجد تفسير حلمك هناك، في أرض الله الواسعة.

صمت صالح لوهلة، ثم هزَّ الحذاء بين يديه وتجاسر وهو يقول: إذن، فشرطي لقبول هديتك، هو أن تقبل الحذاء الذي سأمنحك إياه، لا يمكن أن أتركك تكمل سفرك حافي القدمين، فالحرارة ستحرق قدميك.

وحينما دخل الفتى صالح في عمق الدكان، كي يجلب له فردة حذاء، سمعه يقول: يا ولدي، لا تهتم لأمري، فلا أحتاج إلى الأحذية.

عاد صالح إلى واجهة الدكان، فلم يجد أحداً، تلفت في الأنحاء، دون أن يعثر على أي أثر للغريب، كأنه لم يكن هنا منذ قليل، تلفت في طرفي الشارع، ولم يلمحه، كأنه مر أمام عينيه مثل شهاب خاطف، فاستعاذ بالله من الشيطان، وعاد يخلط الأصباغ، وقد لمح فردة الحذاء الفضي، فلمسها، وحملها بين يديه، وهو يقول: والله لولا هذا الحذاء الذي ألمسه بيدي الآن، لقلت إني في حلم. ثم توقف لوهلة مستعيداً عبارة الغريب الأخيرة: كأنني سمعته يقول بأنه لا يحتاج إلى الأحذيةٍ، هل قال بأنه لا يمشي؟ كيف تحرّك إذن؟ هل طار مثلاً؟.

خرج من الدكان ونظر في السماء الصافية، ولم يلمح سوى سرب حمام يعبر، وأجنحته تبشر بالضوء، فعاد إلى ألوانه، وهو يقول لنفسه، لقد تعجّب أنني ابن صانع أحذية، ولم أطر بعد!.

كان ذهنه مشغولاً، فلم يتمكن من التركيز، التقط لوح الكتابة، وأودعه داخل حقيبته، ثم غادر الدكان سريعاً، لكنه توقف، وقد تذكَّر الحذاء، فالتقطه على عجل، ووضعه داخل الحقيبة أيضاً، ثم انطلق إلى باحة المسجد حيث يجتمع التلاميذ، التحق بهم جالساً في الصف الخلفي، وأخرج اللوح وأداة الكتابة، وقد اطمئن إلى الحذاء اللامع، كان يتصيد التفاتة صديقه ناصر، كي يغمز له بخبر مهم، لكن ناصر كان منهمكاً في مراجعة سورة النبأ، وما أن انتهى الدرس، وخرجوا إلى الدروب الضيقة، حتى انتحى بصديقه تحت أثلة ضخمة تفيض من خلف حائط طيني، وأخبره بحكاية الرجل الغريب الذي زاره، صمت ناصر لوهلة، وقد شعر بالإحباط، وهو يجزم أن حالة صديقه بدأت تسوء من جديد، فتنحنح وهو يقول: اسمع صالح، لا بدّ أن تبعد عنك الوساوس، فلا يوجد شيء غير الذي يراه الناس جميعاً، ولا يوجد شيء غير الذي يسمعه الناس جميعاً.

هزَّ صالح رأسه باستفزاز: لا يا ناصر، أنا أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، وإن كنت لا تصدق حكاية الرجل الغريب الذي زارني فجر اليوم، وحكاية الحذاء الفضي، فماذا ستقول لو أريتك إياه؟

صاح ناصر مذهولاً: هل ستريني الرجل الغريب ذا البشت؟

ضحك صالح بشغب وسعادة: الظاهر أنت طلعت المجنون، وليس أنا، سأريك الحذاء الفضي، حذاء مختلف عن أحذية أبي الجلدية، لا هذا حذاء فضي يلمع.

هتف ناصر بتلهف: هيا أرني إياه، أتحداك.

فتح الحقيبة الجلدية، وأزاح اللوح، وأراه إياه دون أن يخرجه: انظر، ما رأيك بهذا الحذاء الفضي الجميل؟.

شهق ناصر، وهو يتمتم: والله أنك صادق، هذا حذاء لم أرَ مثله في حياتي.

زمَّ صالح شفتيه، ووضع يده عليهما: اسمع يا صديقي، لا من شاف، ولا من درى. انتبه تخبر أحداً بذلك.

هزَّ ناصر رأسه: أعدك.

في البيت، خبأ الفتى صالح حقيبته الجلدية، ووضعها في مكان ليس في متناول أحد، ثم صعد أول الدرج المؤدي إلى السطح، وجلس يتأمل العصافير وهي تطير وتحطُّ على باحة البيت، لتشرب من طشت الماء، الذي تغسل أمه الملابس فيه، كان يطيل النظر في أمه، التي تثني ساقها، وتدعك الملابس في الماء، ويفكّر عما إذا كانت هي الأنسب كي يفاتحها بفكرة السفر، أم ستستشيط غضباً عليه، وستدّعي أن حالة الجنون قد عادت إليه، وتجبر أباه على أخذه عاجلاً إلى المطوع، كي يقرأ عليه، وإن لزم الأمر، وأصبحت حالته غير قابله للشفاء، فليقوم بكيِّ رأسه، لعله يهدأ بعد ذلك.

قال بصوت مسموع: لا، ما ينفع أبداً. تنبَّهت إليه أمه، وحدقت نحوه بقلق: ماذا بك يا صالح؟.

صعد الدرج الطيني وهو يردد: لا، ولا شيء.

انهمك صالح في القراءة، لم يفهم تلميحات ابن سيرين في كتابه (تفسير الأحلام)، فاستلَّ كتاب (ألف ليلة وليلة)، وأكمل قراءة الليالي، التي سحرته حكاياتها العجيبة، فكان يلهث خلفها كل ليلة، حتى أنه لا ينام إلا والكتاب بين يديه، وفتيلة السراج بضوئها الخافت تتراقص بخفة أمام عينيه الصغيرتين، ولا يصحو فجراً إلا وهو مرهق، فيذهب إلى الدكان وهو يتأرجح نعساً، وفي داخله شغف لمعرفة ماذا حدث للسندباد البحري، ولأبي الحسن العماني، ولشمس النهار، وللصياد والعفريت، وللتاجر البغدادي واللص، ذلك التاجر الذي أفلس، فحلم بكنز عند جدار جامع في القاهرة، فركض خلف حلمه إلى هناك، وقابل متشرداً عند جدار الجامع، ولما أخبره عن حلمه، قال له المتشرد بأنه حلم أيضاً بكنز في بيت بغدادي، فوصف له بيت التاجر بشكل دقيق، وعاد التاجر كي يعثر على الكنز في بيته. لقد راقت له القصة التي تشبه قصته، وابتسم لنفسه وهو يفكر، هل يعقل أن يكون مصيرك يا صالح نفس مصير التاجر البغدادي، الذي حلم بكنز في القاهرة؟. ثم أضاف محبطاً: لكنني لم أحلم بكنز ولا مال، بل حلمي كان غريباً، وربما

تافهاً، ولا يستحق العناء ومشقة السفر، ولم أجد متعة في تلك الليالي الثلاث التي حلمت فيها، سوى متعة الطيران، ورؤية الأرض من الأعلى، أما جزء الذبيحة، وسحب الأمعاء من جوفها، حتى يندلق الروث من المعدة أمامي، فهو يثير الغثيان حقاً. ضحك صالح وهو يردد بسخرية: حتى الحلم يختلف بين تاجر وابن صانع، فالتاجر يحلم بكنز من الذهب والمجوهرات، وابن الخرَّاز يحلم بدم وروث ورائحة نتنه! يا سبحان الله، الأحلام صارت كالأرزاق، للتجار والسلاطين أحلامهم الثمينة، وللخرازين والنجارين والطحانين أحلامهم الفقيرة. ورغم ذلك، لا يهم ما تقوله هذه الكتب، المهم هو ما قاله الرجل الغريب، لقد قال لي سافر، وستجد تفسير حلمك هناك! ولكن كيف أسافر؟ كيف أقنع أبي أن تلك هي الحقيقة التي يجب عليه أن يتفهمها؟ وكيف أقنع الناس في طريق رحلتي بحلمي، وأسأل عن تفسيره؟ أشعر أن الضحك والسخرية لن تقتصر على أبي، بل العالم كله سيضحك مني، ويعتبرني مجنوناً، فكيف لفتى عاقل أن يتجرأ على الرحيل تاركاً أمه وأباه، وأخاه وأخته، ومدرسته وقريته، وأصدقاءه، بحثا عن تفسير حلم؟.

لم يعد صالح ينام ليلاً، إلا حينما يقترب الفجر، فأصبح يستيقظ متأخراً، يسير مرهقاً، ويتأرجح دائخاً بعينين حمراوين، حتى أهمل في عمله، وفي تحصيل دروسه،

فانتاب أباه القلق لهذا التحول الغريب في حياته، وبدأ يراقبه جيداً في حركاته، وسكناته، وخروجه من المنزل، وعند نومه.

الفصل الثالث:
فردة حذاء فضية

ذات مساء، حينما تمدّد صالح على فراشه، وجعل يتأمل السماء، اقترب منه أبوه الخرَّاز، ومسح على رأسه بعطف، وهو يسأله عمَّا يقلقه، ورغم محاولة الابن التحجج بالعمل والكتاتيب، إلا أن الأب أصرَّ على أن يخبره، وهو يقول له: كان أبي، أقصد جدك، حينما كنت في عمرك تقريباً، في الخامسة عشرة، كان يقول لي مثلاً معبِّراً، إذا كبر ولدك خاويه، وأنا الآن أسامرك كأنني صديقك، اعتبرني ناصراً مثلاً.

ثم بعد لحظة صمت: هل ترغب أن تكمل نصف دينك؟ نشوف لك بنت الحلال؟. ابتسم صالح وهو ينفي ذلك، ثم ذكَّره بالحلم الذي تكرَّر ثلاث ليال، والذي أفتى فيه الأب بأنه حلم فتى يخاف من المثقاب المستخدم في صناعة الأحذية، وأخبره بأنه سأل كثيراً من الناس، حتى مطوّع القرية، سأله بعد أحد الدروس، فقال له بأنه ليس حلماً، بل رؤيا خير، وأنه سيكون له شأن في المستقبل.

أكَّد الأب: إن شاء الله، سيكون لك شأن في القرية، وأنت فتى بار، تساعدني في الدكان، وتسعى إلى طلب العلم.

ازدرد صالح ريقه بصعوبة وهو يضيف: لا يا أبي، مستقبلي ليس هنا، بل في بلاد الله الواسعة.

ارتعش الأب قلقاً: ماذا تقصد؟ هل تنوي السفر مع عقيلات؟

واصل صالح حديثه وقد استوى جالساً: اسمع يا أبي، لقد زارني في الدكان قبل أيام رجل غريب، يلبس بشتاً رمادياً، نظرته غريبة، وفي عينيه خضرة لم أشاهدها من قبل، توقعت أنه مسافر غريب يبحث عن حذاء يعينه على الطريق، لكنه طلب مني قماشاً، فأخبرته أنني ابن خرَّاز، أي صانع أحذية، ولا يوجد لدي إلا الأحذية والجلود. ثم تذكرت قطعة القماش التي تحتفظ بها أمي لي ولأخي، كي تخيطها ثوبين للعيد، فقررت أن أمنحها إياه، لعل الله يمنحني خيراً منها، فشكرني كثيراً، وأهداني فردة حذاء فضيّ، لا تشبه أحذيتنا التي نصنعها يا أبي، إنها مختلفة.

تنهَّد الأب، وردد بصوت خفيض: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم وضع يده على جبين الفتى، وبدأ يتمتم، وينفث في صدر ابنه. صمت صالح، ولم يقاطعه، حتى انتهى من رقيته. وقال له وهو يغلق جيب صدره: أعرف يا أبي، أنت لا تصدقني، وتظن أن حالة سماعي لأصوات الأغنام، تحولت إلى رؤية أشياء لا يراها أحد، لكن ماذا تقول لو جلبت الحذاء، ووضعته أمامك الآن؟.

ارتفع حاجبا الأب دهشة: هل أنت جاد؟.

قفز الفتى من فراشه، وهبط من سلم الدرج الطيني، ثم عاد حاملاً معه الحذاء اللامع، وضعه في حجر أبيه: هذا هو الذي منحني إياه الرجل الغريب.

رفعه الأب ببطء، وتأمله جيداً، وقد أذهله بريق الفضة فيه: يا إلهي، كم هو جميل هذا الحذاء، لم أرَ مثله في حياتي، ولا أظن هناك صانع أحذية يستطيع أن يصب هذه الفضة الخالصة على شكل حذاء. ثم التفت نحو صالح: ولكن، لِمَ فردة واحدة، لماذا لم يمنحك زوج الحذاء؟.

أجاب صالح: لا أعرف يا أبي، طلبت منه أن يتوقف كي أمنحه حذاءً جلدياً ملوَّناً وجميلاً، وقد كنت أظن أنه حين يلبس زوج الحذاء الجلدي، سيضطر إلى خلع فردة الحذاء الفضية الثانية، ثم يمنحني إياها، لكنني حينما استدرت لأمنحه الحذاء، لم أجده.

عاتبه الأب برفق: لماذا لم تلحق به؟.

ابتسم صالح: لم يعد موجوداً يا أبي، بحثت عنه في طرفي الشارع، ولم أجد له أثراً، كأنما ابتلعته الأرض، أو طار في السماء، حتى أنني توقعت أنني كنت في حلم يقظة، لكنني وجدت الحذاء الفضي بين يدي فعلاً، وهو الآن بين يديك كما ترى.

قام الأب واقفاً، ومشى نحو سترة السطح القصيرة، ووضع يده على حافتها الطينية المزينة بأعواد العشب الأصفر: والله يا ولدي، إن هذا لأمر غريب فعلاً، لا هو بالحلم، ولا هو بالعلم، ولا أظن أن أحداً يفهم مثل هذه الحالة الغريبة، ويدرك سرَّها، إلا المطوع، فهيا بنا الآن إلى بيته،

حتى لو كان الوقت متأخراً ليلاً.

قرعا الباب برفق، ففتح لهما الشيخ حاملاً سراجه، وأدخلهما، وهو يردد قلقاً: خير يا أبا صالح، هل أهلك بخير؟.

أجاب الخرَّاز: كلهم بخير، لكننا جئناك بأمر استعصى علينا فهمه، فأنت تتذكر أن صالحاً سألك قبل أيام عن تفسير حلمه، وقد أخبرته أنت أنه ليس حلماً، بل هي رؤيا خير. ثم أخرج الخرَّاز الحذاء الفضّي، ووضعه أمام المطوع: هذا هو الخير.

تناوله المطوع، وقلّبه بين يديه، وأنصت للفتى صالح الذي قصَّ عليه حكاية الرجل الغريب الذي زاره فجراً. كان المطوع منصتاً باهتمام، ثم قال: هذا رسول خير، خصّك الله به يا صالح، وماذا قال لك أيضاً؟.

واصل صالح حديثه عن هذا اللقاء العجيب، وأخبره عن تفسيره لحلمه، ونصيحته له بالسفر في أرض الله الواسعة.

صمت المطوع لوهلة، وهو ينظر نحو الأرض، ثم رفع رأسه: سافر.

قاطعه الأب بحنق: ماذا تقول يا مطوعنا، هل يسافر وهو فتى غضّ العود؟

ابتسم المطوع تجاهه، وقال بحكمة وروية: وأنت يا أبا صالح، ألم تسافر مع قافلة عقيلات وأنت في العاشرة؟ فكيف

تحرم عليه ذلك وهو في الخامسة عشرة؟ وهو من أذكى الأولاد الذين يدرسون عندي؟

ارتبك الأب واعترف: هذا صحيح، لكنني بحاجة إليه في دكاني، وأخشى عليه من السفر، أنا أب، وعندي مشاعر.

أجاب المطوع: ووالدك رحمة الله عليه، كان أباً، وله مشاعر مثلك، وقلبه كبير. أما أمر الدكان فيمكن أن يساعدك عليه ابنك الصغير حمود.

ثم أضاف: يا أبا صالح، السفر يجعل الإنسان أكثر خبرة ومعرفة، وفيه سبع فوائد كما تعرف، ولو لم يعد إلا بالعلم الذي سيكسبه، ويعلمه لأطفال القرية لكفى. لكنني أثق بالله سبحانه، أنه سيحفظه، ويعيده سالماً غانماً.

لم يكن سهلاً أن يقتنع أبو صالح بسفر ابنه، فضلاً عن أن يقنع أمه التي سترفض، لكنهما ذات يوم، وجداها جالسة في باحة البيت، وهي تسفُّ السلال والمكانس وسُفر الطعام من خوص النخل، وما أن لمحت ابنها، حتى صاحت: جاء بك الله، كنت أسأل عنك، عندي بعض السلال طلبتها اليوم جارتنا، لكنني أحتاج إلى ألوانك الحلوة، الله يرضى عليك.

هزَّ صالح رأسه، وأخذ منها شرائح سعف النخل، وذهب بها كي يلوِّنها، ويعرضها في الشمس حتى تجفّ، بينما غمز له أبوه بأن يتركهما لوحدهما. كانت لحظة مخيفة للأم وهي تتخيل صباح البيت من غير صالح، أو أن يمرَّ النهار دون

أن تسمع صوته الخشن، وهي تهفو بسعادة كلما ناداها، وتدعو في سرِّها، بأنٍ يحفظه الله ويكبِّره، وتسعد بزواجه وأولاده، لم يكن سهلاً على الأب أن يجعلها توافق على فكرة السفر إلى أرض الله الواسعة.

قال لها، بأنه أصبح رجلاً، وقد تعلَّم الرماية والسباحة وركوب الخيل، ولا ينقصه شيء ليحمي نفسه، فهو كما تعلمين يصيد الطيور وقت هجرتها في الصيف، ويسبح في الآبار والبرك، وعرف كيف يركب الخيل والنوق، فهو رجل حقيقي.

كانت تبكي، وهي تلومه كيف وافق في البدء، ولماذا ذهب إلى المطوع، كي لا يحرضه على السفر. قال لها الأب: إنها رؤيا يا امرأة، ساقها الله له في نومه، ثم كررها ثانية وثالثة، ثم أرسل له رجلاً غريباً، بيّن له أن الطيران هو سفر، وكذلك الكتب تقول له إن الروث هو رزق كبير، فلا تحرميه من حلمه.

.

الفصل الرابع:
ماذا لو صرتُ أميراً؟

كان الفتى صالح لا يكفُّ عن القراءة، وكثيراً ما كان يتذكَّر حكاية التاجر البغدادي، ويهمس ما الفرق بينكما يا صالح، هو تاجر أفلس، ثم عثر على كنز، وأنت فتى صانع لا تملك شيئاً أبداً، وقد تعثر على كنز، فتجعل قريتك من أجمل قرى العالم، بل سأجعلها مدينة، سأبني فيها مدرسة وجامعاً ومستشفى ومركز شرطة، سأكون أنا الأمير... ثم ضحك بسخرية: الأمير صالح الخرّاز! سأضع عند مدخل البلدة مجسماً ضخماً لحذاء لامع، هل يعقل هذا الكلام يا أحمق؟ ثم ضحك بصخب. فباغتته أمه وهي تمرُّ بجواره حاملة قفَّة خوص كبيرة: ما بك يا جنيني... جرى لك شيء؟. فخجل منها، وقد ضبطت ضحكته، فابتسم لها: لا يا أمي، كنت أفكِّر فقط. وحينما ابتعدت عنه، أضاف صائحاً: أمي، هل قال لك أبي شيئاً؟ لكنها مضت إلى حجرة مخزن التمر دون أن تجيب، فلحق بها: أمي أرجوك وافقي، وسأعود في أسرع وقت ممكن، سأعود بالخير لنا ولقريتنا (خبّ المنسي) أيضاً، ستشعرين بالفخر، وأعدك حينما أعود سأطلب منك أن تبحثي لي عن عروس.

كان يعرف أنها تنتظر لحظة زواجه بفارغ الصبر، وأنها تحلم بأن تلاعب أطفاله وتناغيهم، لكنها لم تجب، وهي منهمكة في أخذ التمر من قاع المخزن المبني من الجبس الأبيض.

حينما أرادت الخروج، اعترض أمامها، فوقفت وتأملته لوهلة، ثم انخرطت في البكاء، وهي تحتضنه: كيف يطيعك قلبك تتركني؟.

ضمَّها إلى صدره، وقبَّل رأسها، وعينيها، وهو يردد: وافقي يا أمي، وسيحرسني الله، وسأعود بالرزق والخير.

أمسك بيدها، وأجلسها على حافة العتبة، ثم مسحت دمعها، والتفتت نحوه تعاتبه: تعال قل لي، كيف تصير لك كل هذي الأحداث وما تخبرني؟.

نشف ريقه، وهو يقبّلها: تقصدين الرجل الغريب؟.

ثم همس لها: قال لك أبي عن الحذاء الفضي؟.

هزَّت رأسها بالإيجاب، وسألها: هل أراكِ إياه؟

هزَّت رأسها بالنفي، وفزَّ راكضاً نحو حقيبته الجلدية، ووضعه بين يديها، تأملته مأخوذة بلمعة الفضة الرائعة، جعلت تتفحصه مبهورة، وهي تتمتم: يا إلهي! يا له من حذاء مذهل! كم هو جميل يا صالح! ليتك أخذت منه فردة الحذاء الثانية، حتى أتباهى بجماله أمام نساء القرية!.

انتهز الفرصة وهو يغويها بفكرة السفر: هل رأيتِ؟ لو سافرت، فسأعود بالكثير من الأرزاق، من ملابس وفضة، مما يجعل الجِميع يفتحون أفواههم حينما تمشين، ولن تعملين بعدها في سفِّ الخوص، وصنع السلال والسفر والزنابيل.

نهنهت بحزن: وهل يخجلك يا صالح أنني أسفُّ

الخوص؟

عاتبها: من قال ذلك يا أمي؟ وأنتِ تصنعين من سعف النخل كل ما تحتاج إليه بيوت القرية، من زنبيل، وقفَّة، ومحدرة ينزل بها الفلاحون عذوق التمر من رؤوس النخل، ومهفَّة نهفُّ بها الهواء، ومطعمة لتقديم التمر للضيوف، ومكانس، و....، و...

كفكفت دموعها، وهي تبتسم: وحذاء الخوص الذي أصنعه، ألا يعجبك؟.

داعب وجنتيها بحب: بلى يعجبني، فهو أجمل حذاء.

كانت تحدّق في الحذاء الفضي بين يديها: لكنه ليس كهذا الحذاء الرائع يا صالح.

ثم استدركت وقد تذكّرت: لكن لماذا أنت يا صالح؟ ما معنى أن يختار دكان أبيك من بين الصنّاع في السوق، ويمنحك هذا الحذاء الجميل؟.

تلعثم لوهلة، ثم ازدرد ريقه بصعوبة: ألم يقل لك أبي كل الحكاية؟.

أخبرها أنه رأى فيه ملامح رجل صالح وطيب، ومنحه حاجته، فسألت: ما كانت حاجته؟ أجاب: قطعة قماش، وقد وهبته قماش العيد التي ستخيطين لي ولأخي. فوجئ بأنها لم تغضب، بل هزَّت رأسها: هذا فأل جيد يا صالح، أن تحسن للآخرين، والله يعوضنا خيراً.

نشجت وسحَّ دمعها بصمت: كيف سأقضي يوم العيد من غيرك يا صالح؟ ليت الأمر يتوقف على ثوب العيد لأخيك، لكن الأمر المحزن أنك لن تكون معنا، فكيف سيكون العيد من دونك؟ ألم تفكّر بذلك؟

صمت ورفع رأسه ينظر من فرجة الدار نحو السماء الصافية: سيسهل الله الأمر، أما ثوب أخي حمود، فسأدبره قبل السفر.

نظرت نحو الحذاء الفضي بين يديها: يا ولدي يا صالح، قلت لك لو لم يلبس أخوك ثوب عيد، ولا خرجنا من منزلنا أبداً، لكن المهم أن نراك هنا، وهناك، أسمع صوتك وأنت مستيقظ فجراً، وأنت تحمس القهوة على النار، وأنت ترشّ فرشنا القطنية بماء بارد صيفاً قبل أن نصعد للنوم، أفعالك الصغيرة يا صالح كبيرة في قلبي، كلما حان وقت مهمة مما تفعله في البيت سأتذكرك وأبكي.

ضمَّها إلى صدره، وهو يهمس بحب: هل تعلمين يا أمي، أنني منذ الحلم وأنا أفكّر، وأسأل، وأقرأ، حتى وصلتني النصيحة بالسفر، فقد قال لي الرجل الغريب، الطيران في حلمك هو سفر، فأنا يا أمي أنفذ مشيئة الله، أنا كالطير، أحمل الرؤيا على جناحي، حتى أجد من يفسرها، عندها ستسقط هذه الرؤيا من على جناحي، ساعتها سأتوقف عن الطيران، وأعود.

نهضت وأمسك بيدها، وهي تهمهم بحزن، الله يكتب لنا الخيرة المباركة، ويلهمني الصبر على فراقك، هذا ما أقوله يا جنيني.

ثم أضاف وهو ممسك بيدها: ثم إن أخي حمود سيفعل كل ما كنت أقوم به، فهو لا يصغرني إلا بسنة واحدة فقط، يعني هِو شاب مثلي، وأختي لطيفة يمكنك أن تعتمدي عليها في سف الخوص، يعني الحمد لله كل الأمور عندكم متيسرة، وأنا يساعدني الله وييسر أموري. كان كلامه أكبر من عمره، كان رجلاً صغيراً، يدرك ما يقول تماماً، وهذا الأمر الذي جعل أباه يثق به.

تنهَّدت الأم بحسرة وهي تردد: الله يريد بنا خيراً.

بكت الأم طوال الليل، ولم تستطع النوم أبداً، وهي تتخيل نفسها تفرِّط بفلذة كبدها، ولا تعرف هل هو يأكل، يشرب، ينام، هل اعترضه لص أو قاطع طريق، هل هاجمته الذئاب؟ هل غدرت به ضباع البر؟.

الفصل الخامس:
حكمة اليربوع الصغير

بعد أيام قليلة جهّز الأب متاع ابنه وراحلته، فاختار له ناقة حمراء صلبة، وابتاع لها شداداً يركب عليه، وزينها بالسفائف الصوفيَّة الملوّنة، المتدلية بأهداب جميلة، وحمَّلها بخرجين مملوءين بالملابس والتمر والماء والطحين، كما جهَّز الفتى صالح بندقيته المقمَّع، وأخذ كفايته من الرصاص، وطلبت الأم من زوجها أن يدعو المطوع، وبعض رجال القرية الكبار الأوفياء، كي يودعوه قبل السفر، كانت تريد أن يدعو له الجميع بالتوفيق والعودة سالماً. بكت وهي تحتضنه لآخر مرة قبل أن يخرج من الباب، وأطلت عليه من النافذة الخشبية، وهو يقفز فوق راحلته، ثم يلكزها بعصاه كي تنهض، والرجال يحيطون به ويدعون له، كذلك رفاقه الفتيان يودعونه، في حين رفض ناصر أن يتركه دون أن يسير معه مسافة ساعة حتى يجتاز الرمل الذي خلف (خبّ المنسي)، ولحق به فتيان آخران، ساروا معه، وهم يدعون له تارة، ويمازحونه تارة أخرى، كان ناصر قد طلب من صديقه المسافر أن يترك له رسن ناقته حتى يجتازوا قنطرة الأثل الكثيف، الممتد بعد آخر حائط نخل في القرية، كانوا يسألونه هل تعرف الطريق؟ فيضحك وهو يجيب بأن الشمس والنجوم تقودني إلى طريقي، فيسأله ناصر: أعرف أنك دليلة، لكن سؤالي إلى أين أنت ذاهب شرقاً؟.

ضحك صالح، مرةً ثانية، وهو يتأرجح فوق الناقة، وأوضح له بأن الأجداد والآباء في نجد يحفظون الأمثال الشعبية في قلوبهم، ويسترشدون بما فيها من حكمة عند المواقف، وهم يقولون دائماً: "الشام شامك إذا الزمن ضامك، والهند هندك إذا قلّ ما عندك!".

رفع ناصر رأسه قبالة الشمس التي بدأت ترتفع: الشام في الشمال يا صالح، والهند في الشرق، فهل تقصد أنك ستقصد الهند؟.

هزَّ رأسه: نعم.

تلعثم ناصر، وهو مذهولاً: لكن يا صالح الهند بعيدة، وأنت تعرف أن آباءنا كلهم جربوا يسافرون مع العقيلات حينما كانوا صغاراً، لكنهم قصدوا الشام وفلسطين ومصر، ومع ذلك افتقدهم أهلهم سنوات، فكيف الهند البعيدة؟ وكيف ستجتاز البحار؟.

صاح به أحد الفتيين المرافقين: تعوَّذ من الشيطان يا ناصر، فبدلاً من أن تشجع صاحبنا وهو ذاهب في طريقه، تفعل العكس؟.

اعتذر منه صالح، وهو يردد: لم أقصد إحباطك، لكنني خائف عليك من طول السفر ومشقته.

كان وجه الفتى شامخاً باتجاه الشمس: لا عليك يا ناصر، هذا أمر قضاه الله، أمر مكتوب، وما عليَّ سوى تنفيذه. فلو

كنت قلقاً أو متردداً، لما أقدمت على ذلك منذ البداية.

أوقف الفتى راحلته، وأناخها، ثم هبط من فوق الشداد، وقال للرفاق: الآن عليكم أن تعودوا، لقد أطلتم المشي معي، والوقت لا يكاد يكفي عودتكم قبل غروب الشمس. ثم عانقهم واحداً واحداً، وأوصاهم على أهله، وعلى الوقوف مع أبيه في أي شيء يحتاج إليه.

أجابوا جميعاً: هذا أمر لا يحتاج إلى توصية يا صالح، فهو أبونا جميعاً، ونحن في خدمته في أي وقت.

عادوا باتجاه الغرب، يسيرون ببطء على الرمل، وهم يلتفتون، كل فينة، إلى الوراء، يشيعون رفيقهم الراحل صوب الشمس.

بعدما انتصف النهار، وبينما كان الفتى صالح يسير في صمت الصحراء، منصتاً إلى موسيقى الرمال الناعمة، سمع صوتاً خافتاً، فتوقف لوهلة، وأنصت بانتباه، ثم تلفَّت باحثاً عن مصدر الصوت، فلمح حيواناً صغيراً متدحرجاً مثل كرة قرب شجرة حنظل، حتى أنه لم يميزه عن ثمرة الحنظل، اقترب منه، فإذا هو يربوع كاد أن يدخل في سكرة الموت عطشاً. فتح الفتى فم القربة الجلدية، وبلل طرف شماغه، ثم سكب في فم اليربوع قطرة ماء، وأتبعها بأخرى، واستمر يسكب قطرات الماء حتى فتح اليربوع عينيه الصغيرتين المجهدتين، وحدَّق بوجهه المثلث تجاه صالح ممتناً، وعيناه

تهمسان: لا شيء عندي كي أكافئك، ولكن ثق بقرار قلبك حين تتعدد أمامك السبل! ابتسم صالح وركب ناقته بعد أن انسل اليربوع إلى جحره.

بعد أن هبط الظلام قرَّر أن يسير قليلاً في ضوء القمر المكتمل، كان الهواء العليل يهبُّ كل فينة، فترقص السفائف الصوفية الملوَّنة على وركي راحلته، فيشعر بنشوة الحداء، ويبدأ يغني بصوت عذب هجينية حزينة حفظها من أبيه، حتى رأى نوراً يومض عن بعد، فرك عينيه، وفكَّر، هل هو نور فعلاً؟ هل يوجد نور في هذه الصحراء الموحشة؟. قال لنفسه، أخشى أن بصري أصبح مشوَّشاً، كما كان سمعي حين بكيت وأنا أسمع صوت ثغاء الأغنام في دكان أبي!.

قرر أن يتَّجه صوب النور الذي يومض، كان يقول لنفسه، إن هذا النور مثل حلمي الذي يومض في رأسي، إن وجدته حقيقياً، فسأجد حلمي أيضاً. وبعد مسيرة ساعة، اقترب من بيت بدوي على حافة كثيب رملي، يجلس أمام ناره المشعلة، صاح به البدوي أن تفضّل يا ضيف. أناخ صالح ناقته، بينما البدوي يردد، يا هلا ومرحبا. سكب له فنجان قهوة مرّة، وناوله التمر والإقط، وبعد فنجانه الثالث سأله البدوي، من أي البلاد أتى، وإلى أين هو ذاهب، ومن أي العرب هو؟.

بعد أن تناول صالح رغيفاً ساخناً، أخرجه له البدوي من

تحت الجمر، تشجّع وهو يسأله، ما إذا كان قادراً على تفسير الأحلام؟. صمت البدوي لوهلة، ثم أضاء وجهه بشاربه الكثيف أمام لهب النار، وقد لمحه يبتسم، وهو يردد: أبشر، ثم أدار رأسه جهة بيت الشعر، وصاح بأمه العجوز، فخرجت من الخباء امرأة عجوز تستند إلى عصا من شجرة طلح، فطلب منها أن تجلس، واستمعت إلى تفاصيل الحلم من صالح، فلم تزد عن أن قالت له: أبشر بالخير يا أخوك، لكن... (ثم صمتت).

ارتعش الفتى من كلمة (لكن)، ثم توسل إليها أن تكمل ما تراه، أو ما تعرفه، مدّت العصا نحو النار، وحرّكت الجمر قليلاً، ثم سحبت طرف غطائها الأسود، وتناولت الصرَّة الصغيرة المعقودة، وفكّت رباطها، ثم أخرجت خمس وَدَعات بيضاء، لها صوت يشبه الرنين وهي ترجّها داخل كفِّيها المقفلتين، فكّر من أين جاءت هذه العجوز بخرز الوَدَعات البيضاء؟ من أي بحر، وهما في صحراء ليس فيها سوى السموم والحر والعطش؟.

رفعت كفَّيها عالياً، ثم فتحتهما ورمت الوَدَعات على الرمل، فسقطت ثلاث قربها، بينما قفزت منها اثنتان لوحدهما بعيداً، أعادت الكرّة ثانية، وثالثة، وفي كل مرة كانت خرز الوَدَعات تتفرق إلى مجموعتين، ثلاث إلى جهة، واثنتان إلى جهة أخرى قرب النار، ومع كل مرة كانت

العجوز ميثاء تقول: يا وجه الله!. ثم رفعت رأسها نحو السماء، حدّقت في هالة القمر، ثم صوّبت نظراتها تجاه وجه الفتى المتلهّف، ثم نظرت في يديه، مدّت يدها نحوه: هات يدك يا غليّم. نظرت في أصابعه، وقالت: بسيطة، يا أخوك، الخير ينالك، لكن كن حذراً...

سألها بقلق: هل هناك مكروه قد يصيبني؟.

نظرت إلى القمر من جديد: لا أعرف يا أخوك، قلت لك الخير ينالك، لكن يمكن تفقد اثنين!.

ارتجف قلبه: هل تقصدين أمي وأبي يا خالة؟.

اتكأت على عصاها وهي تنهض: لا تسألني يا أخوك، لا أعرف كل شيء، فقط ثق بربك وتوكل عليه.

في الظلام، وقبيل فلق الصبح الباكر، سار الفتى صالح صوب الأفق البعيد، بعد مسافة فاضت الشمس الصفراء، التي كانت الراحلة تسير تجاهها، وكأنها ستدخل العالم الجديد من بوابة الشمس، لكنها توقفت متردّدة، بعد أن تفرّع الطريق إلى ثلاثة دروب صغيرة، فاحتار الفتى أيها يتَّخذ، واستعاد نصيحة الرجل الغريب ذي البشت الرمادي، وإشارة اليربوع الصغير، إلى أن يثق بقلبه، ففعل، ووجد أنه يتَّخذ الطريق الأيسر، فيكتشف أنه يسير تجاه بحر العرب، دليله إلى ذلك الرائحة، والرطوبة الغريبة، ونسيم البحر الذي يشمّه لأول مرة في حياته، حتى شاهد عن بعد زرقة الأفق

الرائعة.

حينما وصل إلى ساحل البحر، أوقف راحلته، ونزل منها مصدوماً، وهو يرى البحر لأول مرة، اقترب من الساحل مرتبكاً، وحينما داهمت الموجة الزرقاء رجليه، تراجع إلى الوراء، وراقب الزبد الأبيض وهو يغمر كعبيه، انحنى وغرف بيديه الماء، ثم رشق وجهه، وشعره، وحينما دخل الماء المالح إلى فمه بصقه فوراً، وبدأ يسعل، وحين استرد أنفاسه توضأ وصلى، وركب راحلته سائراً بمحاذاة الشاطئ، باحثاً عن الميناء الذي تنطلق منه السفن، حتى رأى رجالاً يجلسون على مقاعد خشبية عالية، منسوجة من حصير، بعد أن حياهم، رحبوا به كمسافر غريب، ودعوه إلى فنجان قهوة، لكنه اعتذر شاكراً، واستفسر عن الميناء والسفن التي تبحر نحو الهند، فأشاروا إليه في الجانب الآخر من الطريق. وحينما سار اعترض طريقه صبي المقهى ذو العمامة الخضراء، مقترحاً عليه أن يصنع شاي الأعشاب البرِّية، كي يغسل معدته، فوافق. وبعد أن أحضره إليه، سأله صالح: هل لك في تفسير الأحلام؟ هز الصبي رأسه وأجاب: هات ما عندك يا أخي؟. قصَّ حكاية الحلم الذي تكرر ثلاث مرات، فابتسم الصبي، وأفرد عمامته الخضراء التي يزيد طولها عن متر فوق الطاولة، وسحبها ببطء وهو يفكر ويبتسم، ثم سأله: إلى أين ستسافر؟ أجاب: إلى الهند،

لأرى ما يكتب الله لي. ثم أضاف متسائلاً: وماذا عن الحلم؟. كان الصبي قد أعاد لف عمامته حول رأسه، وهو يشير إلى رأسه: دربك أخضر كعمامتي هذه، لكنني لا أعرف كيف، فقط تابع طريقك، وستجد من يدلك على رزقك.

ارتشف صالح كوب الشاي، ثم نهض مودِّعاً الصبي، لكن الصبي استوقفه، وتبعه حاملاً الكوب، وطلب منه أن يمضغ الأعشاب في قعره، لأنها ترياق الحكمة. مضغ صالح الأعشاب البرِّية، وهو يلوِّح للرجال الجالسين على المقاعد العالية، ومضى يقود راحلته الناقة الحمراء، متجهاً صوب الميناء.

توقَّف عند الميناء القديم في مسقط، وراح يراقب حركة المسافرين بأمتعتهم ودوابهم، بينما كان بائع التذاكر العماني يستلم منهم قطعاً فضيَّة قبل أن يصعدون إلى السفينة. اقترب منه صالح وصافحة، ثم ناوله قطعة فضيَّة، فأرشده العماني بأن عليه أن يدفع قطعتين إضافيتين عن الناقة، ففعل، وهو يداعب عنق ناقته بحنان، تلك التي لا يجوز للعربي أن يتخلى عنها، بعد أن أصبحت رفيقته وخليلته، فهل يليق برجل نبيل أن يتنازل عن رفيقته؟ كان صالح الخرَّاز يفكِّر.

•

الفصل السادس:
نورس يتعلم الطيران

انطلقت السفينة الضخمة في البحر، وهي ترفع أعلاماً حمراء ترفرف بشدة فوق سارية السفينة، انهمك البحّارة في عملهم، وبدأ المسافرون والعمال يأخذون أماكنهم على سطح السفينة، بينما جلس صالح فوق مقعد له مسند عال، وتأمل السماء الزرقاء الصافية، وهمس لنفسه: يا رب أبق هذا الصحو في السماء حتى نصل إلى الهند، وأبعد عنا الرياح والعواصف والأمواج العاتية!

نظر نحو السماء، حيث طائر نورس أبيض يحلِّق بجناحين مضيئين، ويصيح بصغيره، كي يتجرأ ويطير، لكن النورس الصغير ما أن يرفرف بجناحيه القصيرين حتى يرتبك، وهو يرى الأزرق الداكن في الأسفل، فيعود لاجئاً إلى أقرب مكان آمن ليحطَّ عليه. في إحدى المرات حطَّ النورس الصغير فوق عمود السارية العالي، فجاء النورس الكبير، وهو يشجّعه، إن لم تكن جريئاً مغامراً فلن تتعلم الطيران، ولن تخطف السمك العابث فوق سطح البحر، فهل ترضى أن تبقى خائفاً وجائعاً تنتظر من يساعدك أو يصطادك؟.

فكر صالح بما مرَّ عليه، وما اكتسبه خلال تلك الرحلة الطويلة، وقد تخيَّل عيني اليربوع الصغير، المتطلعتين نحوه بحكمة أبدية، وجهه المثلث الذي يشير إلى أن الطرق مهما تعددت لا بدّ أن تتجمع، لتصبح طريقاً واحداً كذقنه النحيل،

يقوده إليه قلبه، رفع رأسه نحو النورس الصغير، وقد حلّق بجرأة هذه المرة، صافقاً بجناحيه الأبيضين الصغيرين فوق سطح البحر، وفكّر أن الرؤيا ساكنة فوق جناحه الآن، لم يفسرها أحد كي تسقط شظاياها فوق زرقة الماء. وقال لنفسه: صحيح أنني تعلمت بعض الحكم والمعارف، لكنني لم أجد بعد تفسيراً لحلمي، فحديث البدوية العجوز أسعدني، وأخافني في الوقت نفسه! فهل ورطني الرجل الغريب ذو البشت الرمادي، وقد فارقت أهلي وقريتي، ليحدث لهم شيءٌ أثناء غربتي! يا إلهي.. هل يعقل أنني فعلت كل ذلك الجنون لأجل حلم؟ هل يمكن أن يصدق فتى عاقل مثلي، نصيحة رجل غريب، رجل فقير وجائع، أخذ قماشي وسرق فرحتي وفرحة أخي بالعيد، وحين سألته عن حلمي نصحني بالسفر، رغم أنني لا أعرف ما إذا كان ذاك الرجل الغريب حقيقة أم حلماً، فما زلت أتذكر كيف اختفى من أمامي فجأة، وكأنه لم يكن!

بينما كان الفتى يفكر في حياته، وهو مسترخ في جانب السفينة الضخمة، سمع ضجيج الركاب المباغت، وركضهم الوجل في الأنحاء، بعضهم يحذر بعضاً، لقد اقتربت الآن، إنها سوداء، فخذوا حذركم، انتشروا. فز الفتى مذعوراً، وهو يتأمل الأفق البعيد، فرأى ظلمة مخيفة، كأنما ستدلف السفينة فجأة في قطعة سوداء من الليل، وما هي إلا لحظات

حتى عمَّ الظلام في الأنحاء، وبدأت السفينة تتأرجح بقوة تحت سخط عاصفة شديدة، وارتفع الموج عالياً حتى أصبح كجدار عال، وارتفعت معه السفينة، ثم هوت، بينما الفتى كان يقبض على حافة السفينة، ويرفع وجهه المخطوف رعباً نحو السماء، يدعو الله ويبتهل إليه: يا رب، يا رب لطفك. ثم فجأة لم يعد يسمع شيئاً، كانت موجة ساخطة قد دهمت سطح السفينة، وقد سقط مغشياً عليه، ولم يزل كذلك حتى سمع تغريد طائر قربه، ففتح عينيه، فإذا السماء صافية، ولم يعرف إن كان ما زال على ظهر السفينة، أم سقط على جزيرة صغيرة نائية في المحيط.

سمع صوت أحد المسافرين وهو يصيح من بعيد: لا بأس عليك يا صالح، حمداً لله على سلامتك.

فتح عينيه، وسمع صوت الرجل، بينما العمال يغرفون بقايا المياه بأوان ضخمة، ويعيدونها إلى البحر، فنهض بتثاقل ووجع، وتشبث بجدار السفينة، ناظراً نحو الأفق، فلمح الزرقة الممتدة، والسماء الصافية، والطيور تحلق فوقه، وسمع رجفة صغيرة قربه، فوجد سمكة ذهبية صغيرة ترتجف، رفعها من على أرض السفينة، ورأى الخوف في عينها الدائرية المشرعة على الموت، لم تكن كعيني اليربوع، بل كانت عيناً تتوسل بخضوع: أعدني إلى الحياة يا ابن آدم. قربها من فمه وتمتم في داخله: الذي خلقك هو

من يعيدك إلى الحياة. فارتجف ذيل السمكة الذهبية، وأضاءت عينها اللامعة بذكاء: كن يد الله، فهو يأمرك بأن تقذف بي إلى البحر، هيا نفِّذ مشيئة الرب. فما كان منه إلا أن رمى بها إلى البحر الساكن، فغاصت في العمق، وما هي إلا لحظات حتى قفزت عالياً، كأنما تصيح به: هل سمعت يا فتى بحكاية السمكة الذهبية التي تخبئ لؤلؤة في جوفها؟.

هزَّ رأسه موافقاً: كأنني قرأت ذلك يوماً ما.

ولولت السمكة بصخب: لا بدّ أن تكون قد قرأتها فعلاً أيها الشاب الصغير، تلك هي حكاية السمكة واللؤلؤة، هل تذكرتها؟.

صمت لوهلة، وفكَّر: لقد قرأتها بالفعل، لكنني لا أتذكرها، إنها من قصص ألف ليلة وليلة، فكيف أتذكر قصة بين مئات القصص؟.

كانت السمكة الذهبية تطفو سعيدة كل فينة: سأقصُّها عليك سريعاً، هي عن ربِّ أسرة تعمل في غزل القطن، وحين عاد ذات يوم من السوق وهو يحمل معه الربح الذي كسبه من بيع القطن المغزول، صادفه محتاج، فمنحه كل ما يملك، واضطر إلى أخذ قصعة قديمة مكسورة من أحد جوانبها، وفي السوق قايض بها سمكة لم يشترها أحد، لأن بطنها كان منفوخاً، مما يوحي بأنها كانت فاسدة ونتنة، وحين فتح بطنها وجد لؤلؤة ثمينة، باعها بسبعين ألف

درهم...

تنبَّه الفتى صالح: آه نعم تذكرت، هي من حكايات الليالي الأخيرة، ولكن ما علاقة ذلك بك، بسمكة ذهبية مشاغبة، كادت أن تموت بفقد الماء، وكدنا نحن أن نموت بفقد الهواء؟

قفزت السمكة الصغيرة في الهواء، وغارت في الماء، ثم فاضت: أنا السمكة ذات اللؤلؤة، لو فتحت جوفي لوجدت لؤلؤة ثمنها سبعون ألف درهم، تحقق بها كل أحلامك وأمنياتك! هيا ماذا تتمنى يا ابن آدم لو امتلكت اللؤلؤة؟.

ابتسم وهو يهزُّ رأسه يميناً ويساراً: أنا قنوع جداً يا سمكتي الذهبية الصغيرة، لا أتمنى إلا أن أجد تفسيراً لحلمي!.

عامت على السطح لمسافة قصيرة وهي ترافق السفينة، وصالح يراقبها، ثم لوَّحت تجاهه: هل ترى هذا المدى الأزرق من الماء؟ هل تعرف ما وراءه؟ هنالك في البعيد، شيء يسمى المجهول، ولكي تعرفه عليك أن تذهب إلى أقصاه، كذلك حلمك عليك أن تتبعه، حتى تبلغه وتعرف تفسيره، فلا تقنط، ولا تيأس يا ابن آدم، وأوصيك أن ترأف بنا، نحن مخلوقات الله، لأن الرزق يأتي من الرأفة بالمخلوقات الضعيفة.

وقبل أن تغوص في عمق البحر، فاضت فقاعات صغيرة

من سطح الماء: لا تندم أن تركتني أعيش، فاللؤلؤة الثمينة مجرد مزحة يا ابن الصحراء، وكثير من الحكايات هي مجرد تسلية للمخلوقات.

ابتسم صالح ولوَّح نحو المدى، بعدما اختفت السمكة، وذهبت بعيداً في عمق الزرقة الغامقة، حتى سكن سطح الماء، فيما عدا موجات صغيرة تدفعها الرياح الخفيفة.

حينما بقي لوحده متأملاً، تذكّر حكاية قديمة قرأها عن سمكة ولؤلؤة، وقال لنفسه: ما الذي يجمعني بربِّ الأسرة التي تشتري القطن وتغزله، هو يغزل القطن، وأنا أصبغ الأحذية، هو تنازل عن ربح يومه من غزل القطن لمحتاج صادفه في الطريق، وأنا تنازلت عن قماش ثوبي، وثوب أخي، لرجل غريب ذي بشت رمادي، ولكنه كوفئ بسمكة في جوفها لؤلؤة ثمينة، أغنته عن الحاجة بقية عمره، وأنا فقدت سمكتي المنتظرة!.

ضحك صالح وقد خفقت فوق رأسه طيور النورس مطلقة صيحاتها الفرحة، وقال يخاطب نفسه: عليك يا ابن الخرَّاز أن تكون صبوراً، فما كتبه الله لك من رزق ستجده، فقط اتبع قلبك وإيمانك.

اقترب منه رجل يسير على عكَّاز، وقد تبلل شعر رأسه ولحيته بالماء، وسأله: ما بك يا صبي؟ أراك تتحدث مع نفسك؟ وتضحك مع السماء؟ وتشير نحو الطيور أو النجوم؟

هل ترى شيئاً لا نراه؟ أم أن الهلع والخوف من الموت جعلك تهذي؟. طفرت دمعتان من عيني صالح، وتذكَّر طفولته، حينما عيّره الفتيان الآخرون، بأنه ممسوس، يسمع ما لا يسمعه أحد، فلم يكن هناك من يسمع ثغاء تلك الأغنام سواه؟.

هزَّه رجل العكَّاز: هل أنت مريض، أم أبكم؟ لماذا لا تتحدث؟.

فتتبه صالح، وأطلق ابتسامة حزينة: لدي أمٌّ تبكي الليل والنهار على رحيلي، وأب افتقد مساعدتي له على شظف الحياة وقسوتها، لقد تركتهم خلفي في قرية ليس فيها سوى الرمل والجوع والمرض، وأخشى أن ينالهم مكروه. ربت رجل العكاز على كتفه: لا تقلق، هم في عناية الربِّ. ثم إنك لو كنت معهم، وبينهم، فلن تمنع المكروه إذا كان مكتوباً عليهم، بل إنك لا تستطيع أن تحمي نفسك، لو كتب الله عليك مكروهاً، فماذا فعلت، حينما هبَّت العاصفة؟ هل استطعت أن توقف الرياح؟ أو أن تمسك الموج العالي الذي زلزل السفينة؟ طبعاً لا، لم تفعل شيئاً، فلولا عناية الله، وإنقاذه لك، ولنا، لكنا طعاماً لأسماك القرش. ثم مسح على رأسه، وهو يردد: حمداً لله على سلامتك يا بني.

الفصل السابع:
الغابة المحظورة

حينٍ وصل صالح إلى ميناء بومباي في الهند، كان مذهولاً بالمسافرين والمستقبلين، ينظر نحو الناس، والعربات الخشبية التي تجرها الخيول، والباعة المتجولين، والنائمين في الطرقات، والأطفال الشحاذين، كان ينظر إلى ملابسهم الغريبة، إلى البائعات وهن يفترشن الأرض برداء الساري الهندي، نظر نحو ملابسه، وشعر بالخجل لغرابة ما يلبس بينهم، عبر أمامه رجال بملابس عسكرية، يحيطون بثلاثة رجال بيض، يرتدون ملابس أنيقة، سأل صبياً يقف بجواره، فأخبره أنهم إنجليز، وهم من يحتلون الهند.

شعر الصبي بأن صالحاً غريباً، وعرض عليه أن يذهب معه إلى بيته في حي البحارة، فسار معه إلى كوخ صغير من الصفيح، واستقبلته الأم الهندية مبتسمة، وحينما علمت أنه سافر كل هذه المسافات وحيداً، طلبت منه أن يبقى معهم، خاصة أنها تعيش لوحدها مع ابنها أومار، بعد موت زوجها بالطاعون، وافق صالح بعدما شعر بدفء عاطفتها وأمومتها، وبدأ يتعلم اللغة الأردية من صديقه الهندي الصغير، ويكتسب عاداتهم، بعد أن بات يرافقه كل صباح للعمل حمالاً في سوق السمك.

لم يطل به المقام، إذ بدأت تساوره رغبة السير والاكتشاف، رغم أنه أحب الأرملة الهندية رامبياي، وصغيرها المخلص أومار، ورغبته بالسفر إلى مدينة أخرى

قد ازدادت بعد معركة شرسة بالسكاكين وقعت أمامه، بين تجَّار الأسماك، فخشي على نفسه من هذه المهنة، وكره تلك الرائحة التي تملأ المكان. فقرر أن يستأذن من الأرملة الهندية الحنون، وسار بالقطار بين القرى، حتى توقف عند قرية صغيرة، فوجد فيها نجارين يصنعون الأبواب والنوافذ الخشبية، وبقي يراقب عملهم لأيام، حتى اكتشف أن ثمَّة فتياناً يجلبون لهم الأخشاب من غابة قريبة، ويبيعونها، فقرر أن يجلب الأخشاب مثلهم، واشترى منشاراً ومبرداً وحبالاً، وقصد غابة صغيرة مجاورة، فكان يقطع الأشجار بمنشاره طول النهار، ثم يحملها على ظهره، نحو مصنع نوافذ وأبواب في طرف القرية، ليبيعها، وما يتبقى من خشب لا ينفع للنجارة، كان يبيعه حطباً على الناس. بعد أيام، وحينما كان منهمكاً في نشر جذع شجرة ضخمة، هاجساً بأمه الحزينة انحرف المنشار الحاد، مشرعاً أسنانه الجائعة، حتى التهمت إصبعي السبابة والوسطى من يده اليسرى، فزعق من شدة الألم، وهربت الطيور الراقدة في الأغصان، وبكت الشجرة العجوز قبل أن تموت، وهي ترى إصبعيه القتيلين، والدماء تصبغ العشب بالأحمر، وكذلك بعض ملابسه، كانت روحه تكاد تطير، وهو يتلوى على الأرض من شدة الألم، بجوار منشاره القاتل. كان يصرخ ويئن حتى هبَّ نحوه صياد هندي شاب، كان قد رآه يتخبط ويتلوى من شدة الألم،

فأخرج من جيبه قارورة صغيرة، سكب منها سائلاً داكناً على جرحه، فما لبث أن توقف الدم، وهدأت روح صالح، ثم قام نحو مكان الكارثة، ورأى إصبعيه القتيلين، همس للصياد الهندي الشاب: هل لك أن تساعدني؟. هزَّ الهندي رأسه موافقًا، حمل له الإصبعين في ورق شجر كبيرة، ثم حفر الفتى صالح بيده اليمنى حفرة صغيرة، ودفنهما. كان يردِّد: الحمد لله الذي اختار لي ما أراد. تعجَّب الهندي، وسأله: تفقد إصبعين، وتحمد الله؟. أجاب: نعم أحمده في كل الأحوال، فهو أراد لي ذلك لسرٍّ لا أفهمه، ولا تفهمه أنت، ولا يفهمه أحد مما خلق.

كان صالح قد استعاد حديث البدوية العجوز ميثاء، التي رمت الوَدَعات أمامه، وأخبرته أنه سينال مالاً كثيراً، وسيفقد اثنين، يا الله كم أنت كريم يا رب. صاح في الغابة عالياً: يا رب يا رب، ثم أطلق ضحكات مجنونة، ورقص بهستيرية، وهو يردد أهزوجة الانتصار في الحرب. ضحك الهندي معه، وبدأ يصفق له بسعادة.

توقّف بعد رقص صاخب، كان يلهث وتعابير وجهه توحي بألم الجرح، ثم أخبر الهندي بأن أمه وأباه لم يموتا، بل مات إصبعاه. كان سعيداً أن سلمت حياة أبويه، كانت عيناه تلمعان بسعادة وهو يتأمل يده اليمنى السليمة، ويفكِّر أن يده اليمنى هي التي يستخدمها في عمله، وهي التي يحمل

بها الأشياء، وهي التي يصافح بها الناس، وهي التي يحمل بها البندقية، وسبابته اليمنى هي ما يضغط بها على ريشة البندقية، كي يقتل الأعداء، أو يدفع بها الخطر عن نفسه.

تذكَّر صالح تلك الرائحة الزكية، التي تضوع من يده اليسرى المربوطة، وجعل يشمُّ الرائحة العطرية النفاذة، ثم سأل الهندي الشاب عن هذا السائل الداكن الغريب. فأخبره بسرِّ العطر، والأشجار التي يستخرج منها في إقليم كارناتاكا، فأمضى ليلته يشمُّ الرائحة ويبتسم.

في اليوم التالي قرَّر أن ينتقل إلى كارناتاكا، وفي مدينة ميسور اكتشف أشجار الصندل الرائعة، فاقترب منها، وشم رائحة زيت عطري نفَّاذة، كسر منها قطعة خشبية صغيرة، وأشعل بها النار، فتصاعد الدخان الأبيض ذو الرائحة الزكية، فشعر بدوار ومتعة، وقال لنفسه، يا الله، كم تذكرني هذه الرائحة أيام العيد، وأيام الجمع في نجد، كم تذكرني رائحة أبي ظهيرة يوم الجمعة، هذه هي رائحة البخور إذن.

فجأة، وبينما كان يستمتع بالرائحة المدوِّخة، أمسكت بذراعه يدٌ قوية، نظر إلى الخلف خائفاً، فإذا به رجل داكن الوجه، يحمل على كتفه بندقية، وهو يقول له: ماذا تفعل هنا أيها اللص؟ ألا تعلم أن هذه الغابات مملوكة للحكومة؟ كيف تتطاول على أملاك الحكومة، وتسرق منها، دون أن تخشى أن نقبض عليك، ونودعك السجن؟.

ارتجف صالح هلعاً، وهو يعتذر بأنه جاء يستمتع، ولم يأخذ شيئاً.

طلب منه الرجل ذو البندقية أن يرفع يديه إلى الأعلى، ففعل، وبدأ يفتشه، ونفض حقيبته الصغيرة المعلَّقة على كتفه، فلم يجد فيها شيئاً، فقال له: اهرب من هنا، ولا تعد أبداً.

سار صالح خائفاً يتلفت، وحزن كثيراً على فقد هذه الغابة الجميلة، لكنه توقف من جديد، واستدار نحو الرجل الذي قطَّب، وأطلق رصاصة في الهواء، وصاح: ما بكَ؟ لماذا لا تهرب؟. أجاب الفتى النجدي: هل تسمع لي قليلاً يا سيدي؟. أجاب الرجل بغلظة: احكِ.

قال: أنا فتى غريب، تركت بلادي وبيتي وأهلي، ولم أجد شيئاً يغسل غربتي، ويعيد لي ملامح أهلي، أبي وأمي، سوى هذه الرائحة الطيبة، فهي تذكرني بالديار. هل من سبيل إلى أن أمتلك قطعة صغيرة منها، كي أشعلها في الليل، كلما اشتقت إلى أهلي؟.

تأفف الرجل، ثم أخرج من جيبه قطعة خشبية داكنة اللون، قرَّبها صالح من أنفه، وشمَّها وهو يغمض عينيه، ثم ابتسم وشكره، ثم سأله الهندي متعاطفاً: في أي مهنة ستعمل؟.

هزَّ صالح كتفيه حائراً، وأشار إلى السماء: الله كريم.

صمت الهندي لوهلة، ثم اقترح عليه أن يعمل صياداً على ضفة نهر صغير، فالنهر وحده الذي لا تملكه الحكومة، ولن يكلفه الأمر سوى سنارة صيد وشبكة وطُعم لأسماك النهر. راقت الفكرة للفتى ومضى بعد أن شكره مرة أخرى.

الفصل الثامن:
صياد النهر الحزين

قرر صالح الخرَّاز أن ينفذ نصيحة الرجل الهندي الداكن، وأن يعمل صياداً هنا على ضفة النهر، خاصة أن النهر ليس ملكاً لأحد، فاشترى سنارة وطُعماً، وجلس على الضفة كي يجرِّب حظه في صيد السمك. أدهشه هدوء النهر وجماله، وراح يتأمل بمتعة صفحته الساكنة، وينصت إلى الطيور المغردة، ويحدِّق في الأشجار الخضراء التي تتكس رؤوسها على صفحة النهر، حتى شاهد ذات يوم، رجلاً بلحية بيضاء، يستريح على ضفة النهر متأملاً دون أن يحمل سنارة صيد، ففكّر عمّا يفعل رجل عجوز عند الفجر على ضفة نهر؟. بادره صالح بالتحية، فأجاب العجوز دون أن يلتفت نحوه.

سأله صالح عمّا يفعل هنا، وهو لا يملك سنارة ولا شبكة صيد؟.

ابتسم العجوز نحوه، وهو يرمي فتات الخبز في النهر، فتفيض رؤوس الأسماك، لتختطفه، ثم تعود في عمق النهر. أراد صالح أن يلقي سنارته ليصطاد من السمك الوافر حول العجوز، إلا أن العجوز منعه بإشارة من يده.

رمى صالح سنارته جانباً، اقترب من العجوز، وسأله: ما الأمر يا عم؟

قال له عجوز النهر: كنت جاهلاً مثلك، أصطاد السمك!

سأله صالح: ولماذا توقفت؟

أجاب العجوز: لأنني حلمت، هذا الحلم جعلني أتوقف عن الفتك بالأسماك البريئة. هل تصدق ذلك؟

هتف صالح: نعم أصدق أيها الشيخ، فأنا تركت قريتي وأهلي، وتبعت حلماً، تخيَّل مجرد حلم!.

أضاف صالح متلهفاً، وقد استعاد حلمه القديم: ولكن كيف يا عم؟ ما الحلم الذي جعلك تترك مصدر رزقك؟.

صمت العجوز لوهلة، والتفت لأول مرة صوبه، فرأى صالح وجهه واضحاً ومرهقاً، بلحيته البيضاء، وقد رمقه بعين خضراء لامعة، وقال له بنزق: من أنت يا صبي، حتى تسألني عن حلمي؟

ارتبك صالح: أنا غريب، لست من هذه البلاد، جئت من بلاد أكلتها الأمراض، وأنهكتها الحروب، لا يوجد فيها سوى النخل، لا مدارس فيها، ولا دواء.

قاطعه العجوز: وماذا تعمل أنت هناك؟

أجاب صالح: كنت أساعد أبي الخرَّاز، هو يصنع من الجلود أحذية، وأنا أصبغها بالألوان.

التفت العجوز نحوه، وقد أضاءت عينه الخضراء بشدة، حتى أصبحت كغابة شجر: هل قلت الجلود؟ أتأكلون اللحوم؟.

نسي صالح أن أكل اللحوم في هذه البلاد هو من المنكرات التي يجب على الإنسان ألا يرتكبها، ومن غير

اللائق أن يكذب الغريب في بلاد لا يعرفها، فهزَّ رأسه بالإيجاب: نعم، نأكلها.

صمت صياد النهر القديم، ونظر نحو السماء لوهلة: قد لا تعرف أيها الغريب أن أكل اللحم عندنا هو من المحرمات، نحن نأكل النباتات فقط، ومن أكل لحماً مرة، فقد تعذَّب مرات عدّة في حياته.

ثم ابتسم وأضاف: سأخبرك ماذا يمكن أن يحلَّ بالهندي المؤمن من ألم حينما يخالف تعاليم دينه، ويأكل لحماً، فقد كان لي صديق في الطفولة، يدعى موهانداس، وكان محتاراً بين صداقتي، وصداقة زميل آخر اسمه براساد، كانت أمه وأخوته، وحتى زوجته الصبيَّة الصغيرة، يرون أن صداقته بي أكثر أماناً له، فهم يشعرون أن براساد كان إنساناً غير سوي، بينما صديقي يرى أنه سيقوِّم أخلاقه، لكن ما حدث هو العكس، فهذا الشيطان استطاع أن يقنع صديقي بأن الإنجليز احتلوا بلادنا لأنهم أقوى منا، وهم أقوى لأنهم يأكلون اللحوم، ولكي نحرّر بلادنا من احتلالهم علينا أن نكون أقوياء، لذلك يجب أن نأكل اللحم، وقد غرر به حتى أقنعه بذلك.

رمى العجوز فتات الخبز في النهر، ثم أكمل: لقد قابلت صديقي موهانداس بعد سنوات، وقد أخبرني عن خطيئته تلك، وكيف قضى أول ليلة بعدما أكل اللحم، لقد قال لي بأنه

لم ينم من الكوابيس، وكان كلما غلبه النوم أحس بأن ماعزاً حيّاً يثغو في جوفه، فيفزّ متألماً من ضميره وحسرته.

قاطعه صالح: هل قلت بأنه يحس بأن ماعزاً يثغو؟ هل كان يسمع الثغاء في جوفه؟.

هزَّ العجوز رأسه بالإيجاب.

ثم حدَّثه صالح عن نفسه، عندما أجبره أبوه بأن يعمل خرَّازاً، وكيف ارتجف حينما أمسك بإبرة المثقب ليغرزها في الجلد، حتى أصبح يسمع الثغاء كل ليلة في دكان أبيه، حتى تركه أبوه يساعده في صباغة الجلد فقط.

توقف العجوز عن رمي فتات الخبز وبقايا الطعام، والتفت نحو صالح، وقال: اسمع إذن يا بني، عليك أن تتوقف عن صيد الأسماك فوراً.

هزّ رأسه موافقاً، وقال: سأفعل، ولكن هلا أخبرتني عن حلمك، الذي جعلك تتوقف عن صيد الأسماك؟.

صمت لدقائق، حتى شعر صالح بأنه قد تجمد، أو مات جالساً، لولا أن لمح أصابعه وهي تعبث بلحيته البيضاء الطويلة. ثم تحدّث: لقد كنت صياداً محظوظاً. دع عنك قصص الصيادين الذين يجدون حوريات أو لؤلؤاً، فذلك لن تجده إلا في الكتب والأساطير. أنا نلت رزقاً وفيراً من هذا النهر السخيّ، كنت صياداً شهيراً حتى جاء يوم معتم، لا شمس فيه، علقت في سنارتي سمكة لم تمت، حتى وأنا

أضعها في السلة، بل حتى حينما بلغت السوق كانت ترتجف وهي تقاوم الموت وسط السلة دون أن تنفق! إلى درجة أن الجزّار شطرها إلى قطع صغيرة، وبقيت كل قطعة تضطرب لوحدها، فهربت من أمامه وأنا أرتعد هلعاً.

سأل صالح مأخوذاً: وماذا بعد يا عم؟

قال العجوز: بعد أيام رأيت، في النوم، أنني أعومُ عارياً في النهر، والسمك ينهش لحمي، دون أن أبكي أو أهرب. كان السمك يقضم لحمي، وأنا أضحك وأعوم حتى صرت هيكلاً عظمياً. ففزعت من نومي، وعندها قررت أن أهجر صيد السمك، وأن أقضي الدين عنِّي تجاه كل الأسماك التي اصطدتها، وها أنت تراني، أحضر فتات الخبز وبقايا الطعام فجر كل يوم، وأعوض الأسماك الصغيرة اليتيمة، التي اصطدت ذات يوم أمهاتها. توقف العجوز عن الكلام، ثم أضاف وهو يمسح دمعه بظاهر كفِّه: إنني أرجو يا بني أن أكفر عن قسوتي، وقتلي جيوشاً من السمك البريء.

تنهد صالح بحزن، قبل أن يأتي صوت العجوز مخنوقاً: يا بني كُفّ عن هذه المهنة، فلن تجد العمر كافياً لتكفّر عن بطشك في سمك النهر الحزين! إننا دائماً نتضرع لملك الموت بأن يكف عن اختطاف آبائنا وأمهاتنا، أليس كذلك؟

أجابه صالح: نعم!

واصل العجوز كلامه: لماذا إذن تصير أنت ملك موت؟

وتخطف أمهات الأسماك الصغيرة، من مملكتها النهر؟ فالسمك مثلنا تماماً، يتضرع للأقوياء بأعين حزينة، فلنكف عن خطف آبائها وأمهاتها.

ثم أضاف وقد لمعت عينه الخضراء: صدقني ستموت يوماً ما، وستضطر أن تستيقظ من الموت كل فجر مثلي، كي تكفِّر عن سوأتك. وقبل أن يسأله صالح: لكنك الآن حيّ، صمت وقد لمح حذاءه الفضي، قبل أن يخفيه تحت سرواله الفضفاض.

تلعثم الفتى صالح، وارتبك، وشكره على نصيحته الثمينة، ثم رمى سنارته وحاملها في النهر، وهو يقول للعجوز: لو بعت سنارتي فسيشتريها صياد آخر، ويأتي من بعدي كي يهلك الأسماك، لذلك رميتها في النهر، ما رأيك؟!

قال العجوز مبتسماً: أحسنت، سيعوضك الربُّ خيراً منها!

بعد أن انصرف صالح، تذكَّر حلمه القديم، فعاد راكضاً ولمح العجوز يغيب بين أحراش الشجر علىٍ ضفة النهر، وكأنه يسير على ماء فضِّي، فدعاه متوسلاً: يا عم، لدي سؤال أخير.

توقف العجوز واستدار نحوه: قل يا بني ولا تسرف، فأنا رجل عجوز ومرهق!

شرع صالح يقص حلمه عن الذبيحة والأمعاء والروث،

ونصيحة الرجل الغريب له بالسفر.

ابتسم العجوز وسأله: وماذا كسبت وتعلمت في رحلتك الطويلة هذه؟

أجاب: تعلمت أن أستفتي قلبي حين يحتار عقلي، وأن أكون شجاعاً ومغامراً، وأكون كريماً، أتصدق على الناس حين يحتاجون إليَّ.

قال العجوز: هذا عظيم يا بني، وهل خسرت شيئاً؟

نظر صالح نحو أصابع يده اليسرى: نعم، لقد خسرت إصبعين فقط.

نظر العجوز في يده وقال: هل أحسست بالألم؟ هل بكيت بصوت عال؟. هزَّ رأسه أن نعم. فهمهم العجوز: هكذا إذن كنت تفعلُ بالجلد حين تثقبه بلا رحمة، كي تصنع أحذية وسلالاً جلدية.

قاطعه: لكنها جلود لبهائم ميتة!.

نظر بخضرة عينه صوب النهر: الأشياء لا تموت، حالتها هي التي تتبدَّل.

تجمَّد صالح لوهلة قبل أن يسأل: كيف؟.

أغمض عينيه، وتحدَّث: هي حياة ممتدة يا بني، ألا ترى هذه الأرواح التي تطوف أمامنا؟. ثم هشَّ بيده أشياء لا مرئية.

تتحنح الهندي العجوز، ثم سحب الهواء الناعم إلى جوفه: خلاصة القول، هي أن فقد إصبعيك لن يضيرك، فقد بقيت يدك اليمنى كاملة، وهي الأهم، ففيها تأكل، وتصافح، وتعارك، وتدافع عن نفسك أمام الأعداء، فحافظ عليها!. ثم انصرف يمشي متمايلاً، فلحق به صالح، وسأله: وماذا عن الحلم الذي قصصته عليك يا عم؟

أجاب العجوز وهو يمشي ببطء: سافر.

صاح صالح بأسى: لكنني سافرت طويلاً، ها قد وصلت بعد أشهر إلى الهند، قادماً من جزيرة العرب.

دون أن يلتفت نحوه العجوز أشار عليه: عد من حيث أتيت، واقطع مفازات الرمل الخالية، هناك ستعثر على قرية فيها بضعة بيوت على حافة نفود، ابحث عن البيت المهجور في طرفها، اقتحمه بشجاعة، واكتشف أسراره، ولا تنسَ أن تصطحب بندقيتك معك.

صاح مرة أخرى بإحباط: هل تمزح؟ ما جدوى أن أسكن في بيت مهجور قرب قريتي؟ ماذا عن حلمي؟ وأين سأجد تفسيره؟

التفت العجوز وهو يلفُّ الشال الطويل على كتفه، فأضاءت عينه الخضراء وهو يشير نحوه بأن يقترب، فهمس له: يا بني لا تتعجل، حكايتك ثمينة كالذهب، عليك أن تبلغ آخرها. اصبر وافعل ما أمرتك به، وستجد تفسير

حلمك هناك!.

ثم أخرج من صدره رقّاً قديماً وملفوفاً، ناوله إياه: هذه أجزاء من كتاب هندي قديم، اسمه المهابهارتا، كتاب ثمين ستجد فيه الكثير من قصص الحروب والعبر والحكم والأمثال، اقرأه في طريق عودتك، فمن قرأه لم يعد كما كان من قبل، وأنت أيضاً حينما تقرأه حتماً ستتغير.

حينما ودَّعه وتحرّك بضع خطى توقّف كما لو كان قد تذكَّر شيئاً، والتفت نحوه: منحتك هذا الرقَّ، لكنني منحتك أيضاً الثقة بأنك لن تفعلها.

سأله صالح بوجل: ماذا تعني؟

قال وهو يهزُّ سبابته الطويلة في صفرة الشمس المستيقظة: أنت صانع أحذية، ولكن احذر أن تستخدم هذا الرقّ المقدّس في مصنوعاتك تلك، لأنني لا أضمن ما قد يصيبك من سوء، ومن سخط الرب، إن حوَّلت هذه الملحمة المقدسة إلى حذاء.

اختفى العجوز بين أحراش الشجيرات تاركاً النهر، ورطوبة العشب، والطيور، ودهشة النجدي الحزين، الذي بدأ يفكر في الأمر، ويقول لنفسه: عجيب أمرك يا صالح، تترك قريتك بسبب نصيحة رجل عجوز ببشت رمادي، لا تعرفه إطلاقاً، لم تره غير ذاك الفجر البعيد، وتترك أيضاً هذه البلاد التي تكبدت المشقة كي تصل إليها، بسبب نصيحة

رجل عجوز ترك الحياة وهجر الناس، وجعل يلوم نفسه ويعتذر من الأسماك! هل هذا معقول؟ تترك بيتك وأهلك متبعاً نصيحة رجل غريب، جاء يبحث عن لفافة قماش رديء، فقايضته بحذائه الفضي، وتعود بعد عناء عدة أشهر من السفر والمخاطر، متبعاً نصيحة عجوز مخبول، يفزُّ فجراً، ليسأل أن تصفح عنه الأسماك اليتيمة، ماذا جرى لعقلك يا صالح؟ يرسلك عجوز ذات فجر، ويعيدك عجوز آخر ذات فجر أيضاً؟ يا للسخرية!

.

الفصل التاسع:
أسرار البيت المهجور

سهر صالح الخرَّاز الليل كله يفكر في كلام العجوز الحكيم، وكيف قطع كل هذه المسافات الطويلة، وأمضى هذه الأيام والمتاعب، حتى يلتقي بهذا العجوز على ضفة النهر، الذي وجد الحكمة في كلامه، والزهد في أفعاله، لينصحه بأن يعود إلى بلاده من جديد، فجأة تذكر صالح حكاية التاجر البغدادي واللص، والتي قرأها في (ألف ليلة وليلة)، وكأنما حكايتهما بدأت تتشابه، كأنما كان عليه أن يقطع كل هذه البراري والبحار بحثاً عن تفسير حلم، وعليه أن يجد تفسير هذا الحلم في بيت مهجور في بلاده، عليه أن يبيت في هذا البيت ثلاث ليال، كي يجد تفسير حلمه، ولكن كيف؟ هل سيأتي شبح رجل ميت كي يفسر حلمي؟ هل ستحط طيور البوم على شرفات هذا البيت الخرب، وتتعب لوهلة قبل أن تتحدث إليَّ، كي تفسر لي هذا الحلم الذي أخذ مني سنة كاملة من الرحيل والسفر والمشقة؟ لكنه قبل أن ينام، قرر أن ينطلق إلى بلاده مرة أخرى.

في الفجر انطلق صالح تجاه بومباي، ومر بالأرملة الهندية رامبياي، ولمح في عينيها حزناً عميقاً، تلفت في الكوخ باحثاً عن أومار، فلم يجده، سألها عنه، فأجابت: لقد حدثت أمور كثيرة أنت لا تعرفها، فقد ترك أومار سوق السمك بعد رحيلك بأيام، ولم يعد حمَّالاً، وعمل في مصنع غزل النسيج في حي بيدهوني، وكما تعرف يا بني، الناس

هنا غاضبون على الحكومة، وقد قرَّر موهانادس أن يتحدى الحكومة بالاحتجاج السلمي، ونحن الفقراء لا نتحمل الضرائب التي تأخذها الحكومة علينا ظلماً، خاصة ضريبة الملح، الذي نستخدمه في طعامنا، وقبل أيام، ذهب أومار إلى عمله في المصنع كالعادة، فحدثت المظاهرات والمصادمات هناك في بيدهوني مع الشرطة، ولم يعد حتى الآن.

صمتت، فسألها متعجباً: هل قلتِ موهانداس؟

هزَّت رأسها موافقة.

سأل: لقد سمعت هذا الاسم من عجوز على النهر، ذكر بأنه صديقه.

قالت الأرملة الهندية: الأسماء عندنا تتكرر يا بني، لكن من أقصده هو موهانداس غاندي.

قاطعها: لا يهم اسمه، المهم الآن هو أن نعثر على أومار. ثم سحب نفساً عميقاً: منذ متى حدث ذلك يا أمي؟.

أجابت: منذ ثلاثة أيام، لم يعد إلى البيت، وهو لم يعتد النوم خارج البيت.

صمتت ثم أطلقت حشرجة بكاء مكتوم في صدرها: أخشى أن يكون قد أصابه مكروه!.

هدأ روعها، ووعدها أن يخرج للبحث عنه، ولن يعود إلا وهو معه. ثم خرج صالح وهو يحدّث نفسه، جئت

لأودعها، وأبحث عن حلمي الموعود، وأصبحت أبحث عن ابنها المفقود، ثم هزَّ رأسه وهو يتمتم: حلمي الحقيقي هو أن أساعد الآخرين، وعليَّ أن أساعد هذه الأرملة النبيلة التي استقبلتني، هي وابنها، حينما وصلت غريباً، إلى هذه البلاد. ثم عاتب نفسه أن راودته بخذلان الآخرين، ثم فكّر: هذا الفتى الهندي أومار هو من علَّمني اللغة، والسلوك، والعادات، وأقل ما يجب عليَّ هو أن أبحث عنه، وأعيده إلى أمه.

اتجه فوراً إلى حيٍ بيدهوني، فمرَّ على مصنع غزل النسيج، ووجده مقفلاً، بحراسة رجال شرطة، ورأى الناس متكتلين في جماعات صغيرة، وبعض رجال الشرطة يتجولون فوق خيولهم، فاقترب من إحدى الجماعات، وسأل عن المصنع، فأخبره أحدهم أن الحكومة أقفلت أبوابه حتى تهدأ الأوضاع في المنطقة، ثم سأله صالح عما إذا كان يعرف فتى اسمه أومار، يعمل في المصنع، فأجابه بأن الجميع في بيوتهم، أو في مخفر الشرطة. شكره ومضى إلى المخفر، وسأل الشرطي المناوب عن أومار، ففتش في دفتر أمامه، وقال بأنه موجود في السجن، ولم يحضر أحد كي يخرجه بكفالة مالية، دفع صالح عشر روبيات، ووقّع على بضعة أوراق، ثم انتظر حتى جاء أومار، الذي دهش حينما شاهد صالحاً، فاندفع نحوه وهو يعانقه بقوة، ويربت على

ظهره. عاد صالح مصطحباً أومار إلى حي البحارة، ولم تكد الأرملة الهندية تشاهد وحيدها يقف أمامها، حتى بكت بمرارة وفرح، وهي تعانقه، ثم انعقد لسانها وهي لا تعرف كيف تشكر هذا الفتي النجدي الغريب.

في الصباح التالي، استيقظ صالح، وجهَّز أغراض السفر، مودعاً الأرملة الهندية، التي ناولته سلَّة فواكه مجففة، ثم ناولته كيساً مملوءاً بالملح، وهي تقول: راحلتك قد تحتاج إلى الملح حين لا تجد لها طعاماً. شكرها، وأراد أن يعيده لها، لأنهم بحاجته أكثر من الناقة. قالت: لا تقلق، نحن ندبِّر أمورنا. سألها بقلق: كيف، وأنتم لا تستطيعون دفع الضريبة على الملح؟. ابتسمت: لا تخشى علينا، نحن الآن نستخرج الملح من ماء البحر، تركنا ملحهم لهم. ضحكت، فضحك معها.

بعدما خرج، لحق به الفتى أومار كي يودعه عند الميناء، وهناك سأل عن أول سفينة ستغادر إلى بحر العرب، لكنه عرف أن عمال الميناء أضربوا عن العمل، ولن تتحرك أي سفينة إلا بعد عودة الحياة إلى الميناء. أشار صالح إلى الفتى الهندي بأن يعود إلى أمه كي لا تقلق عليه. غادر الهندي أومار، بينما انتظر صالح ليومين، حتى كفَّ العمال عن إضرابهم، وعادت الحياة إلى ميناء بومباي من جديد، فتقاطر المسافرون وأمتعتهم، وشاهد النساء وهن يكفكفن

دموعهن، في لحظات توديع أولادهن الشبَّان، بينما الأطفال يعانقون آباءهم الراحلين ويبكون، تذكّر أباه وأمه حينما ودّعهم على أطراف القرية، خارجاً في صمت الفجر الحزين، كما تذكّر أصدقاءه الرائعين حينما صحبوه مسافة ساعات من القرية. في السفينة التي تشق المحيط الهندي متجهة نحو بحر العرب. تأمل صالح السماء الغائمة، ورأى طيور البلشون البيضاء، وهي تطير بشكل منخفض بحثاً عن الفرائس المائية. تهادت السفينة محملةً بالبشر والدواب.

بعد أيام توقفت عند الميناء في مسقط، وبعد أن استلم صالح ناقته، انطلق صالح في صحراء الربع الخالي، يحمل معه الماء والطحين، والتوابل الهندية، والفواكه المجففة، ويعلق فوق كتفه بندقيته المقمع، كان يسميها المقمع ويحبها كثيراً، إذ كان الناس في نجد يسمُّون نوقهم وجمالهم وبنادقهم وسيوفهم وأشياءهم. وبعد أن تجاوز بقاعاً شاسعة ومعشبة من الرمل، حيث كان الوقت ربيعاً، ورائحة الزهور الجميلة، كالخزامى والنفل، تملأ أنفه وروحه الرفرافة، لمح في الأعالي طيوراً تغرّد بصخب، فتذكّر طفولته في القرية، حينما كان ينظر نحو السماء، محدّقاً في الغيم، وهو يشعر بدهشة من تلك الطيور التي تطير عموديًا فقط، لماذا ترتفع الطيور في لبّ السماء، ثم تحطّ نحو الأرض وكأنها أحجار؟ هل هذا هو تحليق الطيور، أم أن ذلك يحدث في القرى

النجدية فقط؟ لماذا لا تسافر هذه الطيور البلهاء، وتطير أفقياً، وهي تملك هذه الأجنحة الجميلة؟ كان يسأل نفسه.

حين كبر، وتعلَّم استخدام بندقية الصيد، أخبروه أن صيد هذه الطيور الحزينة حرام، وللمرة الأولى عرف اسمها، حيث تُدعى أم سالم، تطير عمودياً وتغني، قالوا له إنها ترتفع وتغني فرحاً بقدوم الربيع. لكنه لم يقتنع بذلك، كان يجزم بأنها ترتفع كي تستشرف الأفق، وتغني حزينة، بصوت يشبه النحيب، لأنها لا تستطيع مغادرة قرى نجد، ففي لحنها الباكي شغف الرحيل بعيداً، غير أنها مقيدة بالأرض والرمل، وربما بابنها سالم، الذي لم يره قط.

بعدما سافر بعيداً، وخالط بدو الصحراء، ضحكوا من اسمها عند الحضر. وقالوا له بأنهم يسمونها "ملهية الرعيان" فهي تطير عالياً، وتطربهم بغنائها الحزين، حتى يلهو الراعي، ويغفل عن أغنامه القليلة، فتكون عرضة للذئاب المترصدة.

قضى صالح طفولته كطير أم سالم، يعلو ويهبط في فضاء قريته، حتى جاءه ذلك الرجل الغريب ذات فجر، ونصحه بأن يسافر، فقرر أن يطير أفقياً كما الطيور الحرّة المهاجرة.

اقترب من واحة في كبد الصحراء، تتناثر فيها نخلات قصيرة، وبعض العشب الطويل الفوضوي، قرر أن يستريح

من عناء السفر. أناخ ناقته الحمراء، واسترخى تحت جذع نخلة متوسطة الطول، ونام قليلاً، فرأى في المنام أنه يشد بين يديه أمعاء طويلة جداً، كلما شدّها ازدادت طولاً بين يديه، حتى رأى أنه يلفّ العالم وهو يشدّ أمعاء طويلة لا تنتهي، إلى أن وجد نفسه بين روث بهائم وفير، يكاد يخنق أنفاسه لوفرته، وهو يصارع بيديه وقدميه ليقف فوق تلال الروث العجيب. فزع صالح من نومه مذعوراً، واستعاذ من الشيطان الرجيم، وركب راحلته وانطلق.

بعد أن انتهت الصحراء الشاسعة، لمح عن بعد بيوتاً قليلة، وهمس لنفسه بأن تلك القرية هي التي ذكرها لي عجوز النهر، وبعد أن وصل أول البيوت رأى فتياناً يلعبون (سبع الحجر)، حيث يصفُّ أحدهم سبعة أحجار صغيرة فوق بعضها، ثم يقذف أحدهم نحوها كرة قماش، كي تسقط الأحجار، ويطارده الآخرون، كي يصيبوا جسمه بالكرة، كم كان يحب هذه اللعبة، وقد كان يمارسها مع أصدقائه. استوقفهم بعد أن حيَّاهم، وسألهم عن أقصى بيت في القرية، فأشاروا إلى بيت بعيد، ينتصب فوق رابية نائية، وصاح أحدهم: إذا كنت تقصد البيت المسكون فهو هناك، إنه في الرابية البعيدة تلك!

سأل صالح، وقد تهدج صوته وارتعش: ماذا قلت؟ بيت مسكون؟

أجاب الفتى وهو ممسك بالكرة الملفوفة: نعم، هو بيت مسكون بالجن!

سأل بخوف: ولماذا يسكنه الجن؟ كيف عرفتم ذلك؟.

أجابه الفتى: هكذا أخبرنا عنه آباؤنا، فقد كان يسكنه شيخ عجوز ووحيد، وحين مات لم يجد له أهل القرية كفناً، كي يدفن. كان الجميع قد تملَّصوا من التبرع له بقيمة كفن أبيض يستر جثمانه في باطن الأرض.

سأل صالح بفضول: وماذا حدث له؟.

أجاب الفتى: أمضى الليل مسجى في منزله، بحجة أنهم سيدبرون أمره عند الفجر، لكنهم للأسف لم يجدوا جسده هناك. ظنوا أنه مخطوف تحت الأرض، عند الجن، أو أن الذئاب والضباع قد سحبت جثته، والتهمته. حين أشرقت الشمس، وبينما نحن الأولاد نلعب الكرة قرب البيت المهجور، طوَّح أحدنا الكرة داخل البيت، فدخل غنَّام كي يجلبها، وصاح بنا مرعوباً، دخلنا كي نستطلع الأمر، فوجدنا جنازة الرجل العجوز ملفوفة بكفن أبيض جديد، وتفوح منه رائحة السدر، وحين أخبرنا أهلنا، قدموا راكضين، وفحصوا الجنازة، وتأكدوا من هوية الرجل العجوز، ثم صلّوا عليه، ودفنوه.

سأل صالح: ولكن من الذي أخذه، وأعاده إلى مكانه؟ ومن لفَّه بالكفن الأبيض النظيف؟.

أجاب الفتى: هذا سرٌّ غامض، لا يعلمه أحد للأسف!

صاح فتى أصغر منه: ربما أخذه ملاك، يقولون إنه كان من الرجال الصالحين!.

سأل صالح وقد أصابه الذهول: ولكن قولوا لي ما سر تسمية بيته بالبيت المسكون؟.

قال الفتى: بعدما بقي البيت مهجوراً، حيث لا ورثة للرجل العجوز، جاء رجل وحيدا يعمل نجاراً، رمَّم الأبواب والنوافذ، ثم سكن فيه، لكنه لم يخرج منذ أن دخل فيه، وحين ارتاب أهل القرية في أمره، دخلوا كي يستطلعوا الأمر، فوجدوا جثته متورمة، ورائحتها النتنة تملأ المكان، فسحبوها وصلوا عليه ودفنوه. استقر بعده رجل فقير وزوجته، كانا غريبين، قدما من جهة الجنوب، لكنهما ماتا معاً بعد ثلاثة أيام فقط. ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يدخل هذا البيت، واقتنع أهلنا بأن هذا البيت مسكون بالجن، فلا يكد يمضي على من يسكنه أكثر من ثلاثة أيام حتى يموت!

لم يقتنع صالح كثيراً، فتساءل: ولكن ما سبب موت من يدخله في ظنك؟

أجاب الفتى: لا أعرف، لكن كل الجثث كانت سليمة، غير مشوهة بضرب أو طعن أو تعذيب، فقط تكون متورمة، ولونها يميل إلى الزرقة، كأنها مختنقة، ربما الجن يخنقون من يسكنه!

ثم أضاف الفتى: هذا البيت لا يهمنا، ولا أحد يقترب منه، حتى أننا، نحن الأولاد، صرنا نلعب بعيداً عنه، كي لا تسقط الكرة فيه، ونخسرها هناك، لأننا جميعاً نخشى أن ندخل فيه.

سأل الفتى الممسك بكرة القماش: ولكن لِمَ أنت تسأل عن هذا البيت المسكون؟

أجاب صالح وهو ينظر نحو صمت البيت البعيد، ونوافذه المدلوقة على الخارج: ربما أسكن فيه!

صاح الفتى: ماذا؟! هل أنت مجنون؟!

نفى صالح: لا، لست مجنوناً، لكنني أريد أن أهزم الخوف في داخلي، وفي داخلكم، فإما أن أنتصر وأكتشف السرّ، أو أن أموت دون ذلك.

اعترض الفتى طريق صالح، وصاح برفيقه: غنَّام، أخبر أباك بسرعة، قل له هناك مجنون سيدخل البيت المسكون، هيا تحرَّك!

اندفع الصغير غنَّام صوب أكبر بيوت القرية، ثم عاد بصحبة رجل سمين، له لحية كثة، يخطو متثاقلاً، ثم وقف أمام صالح بأنفاس لاهثة، أخذ يقيسه بنظرة طويلة، ثم تنحنح: من أنت؟ وماذا تريد من هذا البيت؟

أجاب: أنا صالح الخرَّاز، من (خبّ المنسي)، قريتي على بعد ثلاث ليال من هنا، صوب الشمال.

أعاد الرجل سؤاله: وعمّا تبحث في هذا البيت الموحش؟
قال صالح: وهل تعترض على إرادة الله، مكتوب عليَّ أن أفعل ذلك.
أجاب الرجل السمين ذو اللحية الكثة: لا، لا أعترض على إرادته، ولكن الله لا يرضى بأن نؤذي الجن، وألا نرمي أنفسنا إلى التهلكة. أليس كذلك يا صالح؟
تنهَّد: نعم، لكنني قضيت نحو سنة، أطوف الأرض، وأركب البحر، بحثاً عن هذا البيت، وأنا الآن أنفِّذ مشيئة ربي!
هزَّ الرجل رأسه: توكل على الله يا بني. ثم استدرك: ولكن هل لديك وصية؟.
قال صالح: نعم، وصيتي أن تخرِجوا جثتي، إذا لم أظهر لكم بعد أربعة أيام، اغسلوها وكفنوها، ثم احملوها على ناقتي، واذهبوا بها إلى أهلي، فأبي له دكان خرازة في (خب المنسي)، وهو على مسافة ثلاثة ليال من هنا باتجاه الشمال.
أخرج صالح أربع قطع روبية فضية، وأضاف: اشتروا لي باثنتين كفناً، وبالقطعتين الأخريين تصدقوا على فقراء قريتكم!

الفصل العاشر

حوض الماء العجيب

دفع صالح الخرَّاز الباب الموارب بكعب البندقية، فضجَّت مفصلات الباب بأزيز عال، حتى خفقت أجنحة غراب أسحم، وحينما وضع قدمه داخل البيت، فرّت من باحة البيت غربانٌ بيضاء، وتعجَّب كيف تكون الغربان بيضاء، وقد تعارف الناس على أنها سوداء، كاد أن يتراجع وهو يخشى أن هذه غربان الجن، لكنه تقدّم متشجعاً برغم ارتعاش يديه، وبدأ يسمي باسم الله، ويقرأ بعض آيات سورة البقرة، والمعوذتين. رفع رأسه ورأى الغربان تحوم، وفي الأعلى كانت العقبان والنسور تطوف في جماعات، جعلته يتذكَّر الرقَّ الهندي القديم، وملحمة الحرب الشرسة، تذكَّر الأمير "أوتاراكومار" حينما طار قلبه وخارت قواه، وقد رأى وجوه المحاربين الصلبة، المتعطشة للموت تقف أمامه، وكيف تشبَّث بالمتنكر "أرجونا" صائحاً به أن يعيده إلى البيت، بينما كان هذا الأخير يحاول تشجيعه، وهو يقول: سيسخرون منك إن رجعت الآن، وستضحك عليك حتى النساء.

ازدرد صالح ريقه بصعوبة، وهو يفكّر بأن الفتيان خارج البيت، والرجل السمين، وأهالي قريته، سيسخرون منه، ومن خوفه، لذلك عليه أن يقوِّي قلبه، ويتشجع أكثر.

كان ينظر إلى الأعلى، حتى كاد أن يتعثر بعظام هشة أمامه. ركلها بقدمه فتبعثرت، ولم يعرف إن كانت عظام

آدمي، أم حيوان تورط بدخول هذا البيت. وجد وتداً مغروزاً في الجدار، فاختبره بيده، ووجده جيداً ومتماسكاً، فعلق عليه زوادة الفواكه المجفَّفة، وقربة الماء، لكنه احتفظ ببندقيته على كتفه، بدأ يتجول بين غرف البيت، حتى يكتشف أسرار هذه الغرف المقفلة.

دفع باباً مواربًا لإحدى هذه الغرف، ورأى موقد نار في أقصاها، وتأمل جدرانها مصطبغة بسواد الدخان. اقترب من الرماد، ونفخ فيه فطار تجاهه، وأغمض عينيه حالما شعر بدوار في رأسه، فاستند إلى الجدار المسود، ومسح الرماد عن وجهه بظاهر كفه. ثم رأى دِلة قهوة فقدت لونها النحاسي، وهي متروكة فوق رفٍّ خشبي في خزانة مصنوعة من الجبس. التقطها، وفتحها فوجد في قاعها عنكبوتاً أسود اضطرب حالما رأى الضوء، وتسلق عبر خيوطه نحو الأعلى، فأغلق صالح غطاء الدلة النحاسية بهلع.

خرج إلى باحة البيت، ونظر نحو الأعمدة المغطاة بالجبس الأبيض، التي تحمل سقفاً مزيناً بجذوع أشجار الأثل، وجريد النخل المنضَّد.

في الأعلى رمق وزغة كبيرة تنظر نحوه. كانت مغبرة، بينما عينها تلمع وكأنها لؤلؤة مبتلة بالماء، لم تكن كعين السمكة المتوسلة، التي حدَّقت فيه وهو على ظهر السفينة،

بل كانت عيناً جامدة تماماً، هشَّ صالح بيده تجاهها، لكنها لم تتحرك، ولم تطرف أبداً، وكأنها متجمدة أو متصلبة منذ سنوات في مكانها، وما أن أدار وجهه نحو الباحة، حتى اختفت الوزغة من أمامه دون أن يعرف كيف حدث هذا.

داهمت جسده قشعريرة مباغتة، لكنه تذكر وصايا النورس، والعجوز، وحكايات الفروسية في رقِّ المهابهارتا. فتشجَّع وتقدَّم لتفتيش الغرف الأخرى. أطلَّ في غرفة أكثر اتساعاً، ووجد في عمقها فراشاً قطنياً مطوياً، ومغموراً بالغبار. تقدم نحوه، وركله بقدمه وهو يشهر فوهة بندقيته، فارتفع الغبار حتى غمر وجهه، فسعل، واشتد سعاله، حتى خرج إلى الباحة كي يستنشق الهواء، ثم عاد فرأى الفراش القطني مفروداً، وجاهزاً للنوم. ارتبك صالح وخالطه رعب شديد، وتمتم: كيف تركت الفراش مطوياً، وتمدَّد من تلقاء نفسه، فمن فرده بهذه الطريقة؟ بدأ يبسمل ويتعوذ من الشيطان. تحسس الفراش، فوجده دافئاً رغم برودة الوقت، فكأنما هناك من نام عليه قبل قليل. قرأ آية الكرسي، ثم ردَّد بعض الأدعية في سرِّه، وتحامل على نفسه كي يتمدد على الفراش. كان منهكاً من ذلك السفر الطويل، فما أن حطَّ رأسه على الفراش حتى دخل في دهاليز النوم العميق. استيقظ فجراً مفزوعاً على هديل طيور اليمام الحزين، وهي تصطف على سور البيت. لم يكد أن ينهض، ويقف في

الباحة متثائباً حتى خفقت طيور اليمام بأجنحتها الرمادية عالياً، وقد لاحظ أن ثمّة غرباناً سود تنعق في سماء عالية، كانت تنعق وتحلق فوق سطح البيت، فسأل نفسه: هل الغربان سود في السماء العالية، وإذا حطَّت على شرفات البيت، وفي باحته، صار لونها أبيض؟ أم أن الغراب الأبيض الذي رأيته بالأمس هو من فصيلة ثانية لا أعرفها؟ أم أنني كنت وجلاً، فانقلبت في عيني الألوان، ليصبح الأسود أبيض، والأبيض أسود؟. ثم ماذا تفعل هذه الغربان الهرمة البيضاء، في هذا البيت المسكون؟ هل تعيش على الجثث؟ تشرب دم الموتى، وتلتهم الفرائس الميتة من الحيوانات؟ أم أنها لا تأكل أصلاً؟. تذكَّر الرجل ذا البشت الرمادي قال بأنه لا يأكل ولا يشرب. ما نوع هؤلاء البشر؟ وهذه الطيور الغريبة؟ وهل هي موجودة فعلاً؟ أم أنني أرى ما لا يراه أحد، وأسمع ما لا يسمعه أحد؟. كاد الفتى صالح أن يضعف ويتداعى. ضرب صدره بقبضته، وهو يردد: لن أنهزم، لن أحبط أبداً. لقد تعبت كي أصل إلى الحلم، إلى السرّ.

طوى الفراش جانباً، ثم حمل بندقيته المقمع، وتأكد من أنها محشوة برصاصة. خرج إلى الباحة، وتفحَّص الأبواب المحيطة، فلفت انتباهه باب منخفض جداً، لا يكاد يدخله المرء إلا أن يكون منحنياً. فاقترب صالح منه، ووجده يشبه

مغارة تقود إلى مكان مجهول، تسلل برأسه أولاً، ورأى جدران بئر قصيرة، تدعى في نجد (الحسو)، وبجوارها ما يدعى (القرو)، وهو أشبه بحوض يحتفظ بالماء المجلوب بالدلو من البئر. انحنى وهو يدخل بحذر، مشهراً بندقيته أمامه، نظر في قاع القرو، فوجد فيه ماءً قليلاً كدراً على حوافه زبد أبيض، ووجه الماء ما زال مضطرباً، كما لو استخدمه أحد قبل برهة. اختبأ صالح خلف القرو، مستنداً إلى الجدار. صار يردّد في سرِّه الأدعية والأوراد، وعيناه تترقبان، وماسورة بندقيته مشهرة، وسبابته اليمنى التي لم يلتهما المنشار مثبَّتة على ريشة البندقية.

سمع فجأةً خفق أجنحة في الخارج، ولمح من فرجة الباب الموارب ريشاً أبيض يسقط من علو، ثم سمع فحيحاً عالياً يشبه لهب نار في مهب الريح، ارتجف قلبه الشجاع، لكنه تماسك وتشجع ووضع خده على كعب البندقية، وعينه اليمنى على نيشان التصويب. تعالى الفحيح وتصاعد كثيراً، ولمح شيئاً ينسل، فوجدها أفعى ضخمة سوداء من نوع الصلّ تظهر من أعماق المكان المظلم، لسانها يبرق كأنه راية حمراء تلهو بها الريح، كانت تزحف ببطء، قبل أن تهوي في القرو أمامه، تعوم ببطء في الماء، تعبُّ منه، وتقذف فيه سماً أصفر، وبعد أن فاضت برأسها على حافة القرو كان الفتى صالح الخرَّاز قد صوب بندقيته على رأسها

الضخم، لكنها انسلت من جديد إلى عمق الحوض، وظلت تعوم في الماء المتلوِّن بسمِّها، بينما صالح لم يزل يترقب متحفزاً، وهو يشهر بندقيته الطويلة تجاه الحوض، كان خائفاً أن تقفز في غفلة منه، أو أن تباغته وتلتف حول ساقيه، ثم تعصرهما بقوة حتى يتهاوى، وتغرز نابيها المشهرين كخنجرين في لحمه، لتضخ السمَّ القاتل في جسده، فيتخبط ويدخل في خدر الموت البطيء، وبينما كان يفكر ويتخيل ما قد يحدث له، رفعت الأفعى الضخمة رأسها فجأة، وبدأت تنظر وكأنما تشعر أن ثمة أحداً يتربص بها، وبوقفتها المهيبة، بينما كان صالح قد ضبط نيشان بندقيته على رأسها المفرود، وفي لحظة حاسمة، ضغط على الريشة، وانفلتت الرصاصة نحوها، فانكفأت أفعى الصل في ماء القرو، وهي تتخبط، فقام من مكمنه، وراقب عينيها وهما تنطفئان ببطء، ثم حشا بندقيته برصاصة ثانية، ومزق بها جسدها المتين، حتى انشطرت إلى نصفين، وقد خمدت تماماً.

الفصل الحادي عشر:
سر الصندوق المقفل

تأمل الفتى صالح نصف الأفعى السفلي، ولمح حبلاً دقيقاً معقوداً فيها، وطرفه الآخر ذاهب في الظلام. حلَّ الحبل، وتتبع طرفه الآخر، وقد تذكر في تلك اللحظة حلمه وهو يمسك بالأمعاء بين يديه. في العتمة لم يعد يرى شيئاً، فعاد أدراجه، وأوقد ناراً في قطعة حطب صغيرة، ثم دخل المكان من جديد، متتبعاً الحبل، ومهتدياً بضوء الشعلة. انتهى الحبل مغموراً في التراب، وضع صالح الشعلة بجوار الجدار، وحفر بيده اليمنى، ثم استعان بخنجر كان قد اشتراه من مسقط، فصار ينكش به الأرض حول الحبل، حتى عثر على صندوق حديدي قديم، أزاح التراب من حول الصندوق، ثم حاول إخراجه دون جدوى، جذبه من الحبل بقوة، حتى تزحزح قليلاً، فانكبَّ صالح، ورفع الصندوق الثقيل، خارجاً به إلى باحة البيت. حاول أن يفتحه بكعب البندقية، فلم يستطع، فحشاها برصاصة جديدة، ثم صوَّبها تجاه القفل، الذي طار بعيداً، وقد علت رائحة البارود.

رفع صالح الخرّاز غطاء الصندوق، فهاله ما رأى، نكش بماسورة البندقية وسط الصندوق، ثم مدَّ يده بحذر، ولمس ما بداخله، فوجدها جواهر حقيقية. نبش بيده القلائد والأساور الذهبية والفضية، وهو يصيح في داخله: يا إلهي! ما هذا الكنز الثمين؟ هل هذا تفسير حلمي؟ أين أنت أيها التاجر البغدادي كي ترى الخرَّاز النجدي وهو يحصد كنزاً مثلك

تماماً؟ أنت حلمت وسافرت من بغداد إلى القاهرة، لتكتشف أن الكنز في بيتك، وأنا سافرت من نجد إلى الهند، كي أكتشف أن الكنز قرب قريتي!.

كم نحن حالمان عظيمان أيها البغدادي!.

لقد صدقت يا موهانداس، يا صديق الصياد العجوز، وأنت تقول: يستطيع كل من شاء أن يسمع الصوت الداخلي، إنه داخل كل شخص، فلقد سمعته أنا، وسمعه التاجر البغدادي، وسيسمعه كل إنسان حالم وطموح ومغامر.

أقفل صالح الصندوق، وفكر لوهلة، محاولاً أن يفهم سبب ربط أفعى الصل بالصندوق، ولماذا يموت الناس الذين يعيشون في هذا البيت، بعد وفاة صاحبه العجوز الذي لم يجد كفناً. ثم صمت صالح مذهولاً: ها! ولكن كيف لم يجد كفناً ولديه كل هذه الجواهر واللؤلؤ؟ هذا سر عجيب!.

بعد تفكير طويل، عرف صالح أن النجار، والرجل الفقير وزوجته، الذين سكنوا هذا البيت بعد وفاة صاحبه، كانوا يضطرون إلى الشرب من ماء القرو المسموم، بعد يوم أو يومين، لذلك يموتون في اليوم الثالث. لكنه تساءل بينه وبين نفسه، عن سرِّ الأفعى والحبل والكنز، من وضعها هنا، ولماذا هي مربوطة بهذا الصندوق؟.

استعجل صالح في حمل الصندوق، وهو يقول لنفسه: هذه أسرار عجيبة، سأكتشفها يوماً ما، كي أقصَّ حكايتي

على أهلي وأصدقائي.

حمل الفتى الشجاع صالح الصندوق تحت ذراعه، وبيده الأخرى بندقيته المقمع الطويلة، وخرج من باب البيت المسكون، فاستقبله الأولاد مذهولين، كيف خرج من البيت المسكون سالماً وغانماً. قصَّ عليهم حكاية الأفعى، وهو يركب ناقته الضخمة الحمراء، ثم ساقها باتجاه قريته القريبة.

عاد صالح إلى (خبّ المنسي) في أعماق نجد، وركض الأطفال والفتيان الذين يلعبون في طرف القرية وهم يصيحون: رجع صويلح، ثم تناقلت البيوت الطينية الصغيرة كلها خبر عودة صالح الخرَّاز إلى قريته، فاستقبله الأهالي كلهم، منهم من يرضي فضوله، ومنهم من اشتاق إلى رؤية ابن صانع الأحذية النبيل، ومن بين المستقبلين كانت أمه التي تركض وتتعثر، ثم تسقط، وتتحامل على نفسها وتنهض لتركض، كان مشهداً حزيناً، وهي تجري كالممسوسة، حولها ابنها حمود، وابنتها لطيفة، بينما الأب يمشي بتثاقل، رغم أنه يتمنى أن يرمي كبرياءه جانباً، في تلك اللحظة، ويتحول إلى طفل صغير، يرتمي في حضن ولده. كان الجميع يعانقونه بفرح، على رأسهم أصدقاؤه الرائعون، بينهم صديقه ناصر.

حينما جلس صالح مع أمه وأبيه، لم تكن الأم تصدق

عينيها، فكانت تجذبه، كل لحظة، إلى صدرها، وتبكي. صنعت أخته لطيفة قهوة، وأحضرت تمراً لهم، ثم حدثهم صالح عن رحلته الطويلة والشاقة، لم يستطع أن يحكي كل شيء في يوم، بل بقي لأيام، وأسابيع، وهو لا يتوقف عن الحكي عما واجهه خلال طريقه الطويل. لكنه، في ليلته الأولى، كان قد وضع أمامهم الصندوق الثمين، وهو يقول لهم: هذا ما ربحته خلال رحلتي، وهو لكما يا أمي وأبي، أما أنا فقد ربحت ما هو أهم من ذلك، ربحت الحكمة، والشجاعة، والمغامرة، وهذا... (قال ذلك وهو يخرج الرقَّ الذي يحكي مأساة الإنسان، في ملحمة هندية قديمة).

بينما كان الجميع ينصت، صاحت لطيفة بفضول: ماذا بداخل هذا الصندوق يا صالح؟

طمأنها الأب: سنفتحه الآن، فقط تعلمي الصبر!.

ابتسم صالح، وطلب من أبيه أن يفتح غطاء الصندوق، بسمل الأب، وفتح الغطاء، فشهقت الأم وحمود ولطيفة، لأن ضوء الذهب ولمعانه كان قوياً، رفع الأب القلائد والأساور والخواتم، ثم أغلق الغطاء، ونظر في عيني ابنه: من أين لك هذا يا صالح؟. أجاب صالح: هذا تفسير حلمي يا أبي، هذا هو الروث الذي رأيته ثلاث ليال متتالية. لكن الأب قاطعه: قبل الحديث عن الحلم، لمن هذا الكنز؟ كل ما أخشاه أن تكون قد سرقته، أو قتلت أحداً كي تستولي عليه.

تنهّد صالح بقوة: ما ظننت يا أبي أن تظن بي مثل ذلك، وهل عهدت ابنك قاتلاً أو لصاً؟. اعتذر الأب، وهو يقول: يا بني أنا أثق بك، وبعقلك، وبنبلك وشهامتك، ولكن السفر والبعد، قد يكون غيَّر معدنك.

طمأنه الفتى صالح، وجلس يقصُّ عليهم حكاية البيت المسكون، والأفعى التي قتلها، والحبل، والصندوق في نهايته. سعد الأب كثيراً، وناول زوجته قلادة جميلة، فعلَّقتها على صدرها سعيدة، ومنح الصغيرة لطيفة تاجاً فضيًّا جميلاً. وبينما هو يرفع المجوهرات توقف فجأة، وصاح: يا إلهي! ما هذا؟.

تسمَّر صالح وهو يلمح دهشة أبيه: ماذا يا أبي؟.

أمسك الأب برأسه: أنني لا أفهم ما حدث لك يا صالح؟ يا إلهي أسعفنا وأنر بصائرنا!.

الفصل الثاني عشر:
الليلة الثانية بعد الألف

بعد أن أصيب الأب بالصدمة، وبعد أن اقترب منه صالح، كي ينظر في عمق الصندوق، نظر كل منهما تجاه الآخر مذهولاً، وتلصَّص البقية للنظر في عمق الصندوق، حيث رفع الأب بيد مرتعشة فردة حذاء فضي لامعة، وهو يشعر بدهشة كبيرة.

صاحت لطيفة بفرح: أنا أريدها يا أبي! بينما قاطعها حمود بحدة: لا... خلاص، هذه لي، أنتِ وأمي أعطيتما ذاك الحذاء لـ (أبو الخلاء)!.

نظر صالح نحو أخيه بذهول: ماذا قلت؟.

غمزت الأم حموداً كي يصمت، لكن صالح تنبّه لكلمته، فالتفت نحو أبيه: هل فرطتم في الحذاء الفضي القديم يا أبي؟.

صمت الأب وهو ينظر في الأرض بحزن، بينما تلعثمت الأم، فسأل صالح بأسى: من هو (أبو الخلاء) يا أمي؟ ما قصته؟

نظرت الأم إلى الأب، الذي تنحنح قبل أن يقول:

اسمع يا بني، كنا نحافظ على الحذاء في مكان بعيد، داخل صندوقي الذي تعرفه، ولكن حدث ما لم نكن نتوقعه، وهو أمر الله، الذي لا راد له.

هزَّ صالح رأسه: ونعم با لله، ولكن ما الذي حدث يا أبي؟

أضاف الأب: كما تعرف يا صالح، كنا نساعد جارنا في حرث الأرض، كما نفعل كل عام، ونقضي عنده النهار بأكمله، وخلال هذه الأيام كان (أبو الخلاء) قد مرَّ على البيوت، يجلو الأواني ويربُّها، كما يفعل عادة، ووقف عند باب بيتنا، وناولته أمك القدر الكبير، والصغير، والدلة، وتذكرت الحذاء الفضي، وفكَّرت أنها قد تفعل خيراً، حينما يجلوه هذا الرجل، كي تستعيد بريقه، لكن (أبو الخلاء) خدعها بحيلة، وأخبرها أن هذا النوع من الفضة، يحتاج إلى نوع خاص من رمل الغميس، حتى يعود لامعاً كالقمر، وأن ذلك يحتاج منه أن يأخذ الحذاء معه، ويعيده في الغد، وحينما شكّت في أمره، منحها قطعة قماش لم يستخدمها بعد في تنظيف الأواني، قائلاً لها، إن هذه أمانة تحتفظ بها حتى يعيد إليها الحذاء.

صمت الأب لوهلة، ثم أضاف: شفناك وما شفناه حتى الآن.

سأل صالح قانطاً: منذ متى ذلك؟

أجابت الأم: منذ أكثر من شهرين.

تنهّد الفتى صالح: قدّر الله وما شاء فعل.

حزنت الأم وهي تعتذر من ابنها، وتدعو على هذا البائع المتجول: أذكر أن هذا اللص، حينما ناولته فردة الحذاء، مسحه بالقماش الجديد، وقلبه بين يديه، ثم سألني: من أين

لك هذا الحذاء الجميل؟ فأجبته بأن رجلاً غريباً أهداه إلى ابني المسافر، مقابل قماش ثوب العيد. ثم سأل من جديد: وأين الفردة الثانية من الحذاء كي أجلوهما معاً؟ فأخبرته أنه ليس معنا سوى هذه الفردة الوحيدة. فهز رأسه وهو يتمتم: خسارة، الجمال دائماً لا يكتمل!.

بكت الأم بحزن ولوعة، فاحتضن صالح رأسها وقبّله: لا تبكي يا أمي، فهو فداك، ثم إننا كسبنا كنزاً كاملاً، وفردة حذاء فضي جديدة. ثم ضحك، فضحك البقية معه.

صمتت الأم، ثم اكتشفت: الغريب يا بني، أنك حصلت على الحذاء، مقابل قماش ثوب عيدك وأخيك، وخسرناه أيضاً مقابل قطعة قماش أيضاً.

أجاب الأب بإعجاب: صدقتِ، هذا أمر عجيب.

أضاف صالح: هذه إشارة لنا، بأن ما نكسبه بسهولة قد نفتقده بسهولة، فما عدت به الآن من كنز ثمين، قد يكون لكم سهلاً، لكنني تعبت وشقيت، وسهرت وبكيت، وفقدت إصبعي هذين. قال ذلك وهو يرفع يده اليسرى، فانهارت الأم تبكي بحسرة، وهي تحتضنه، ثم أضاف: لا بأس يا أمي، المهم أنني جئت الآن بينكم، ومعي رزق لكم، وللقرية كلها. ما أردت قوله إنه علينا يا أبي أن نحافظ على المال، ولا ننفقه إلا في خدمة القرية وأهلها الطيبين.

صاحت لطيفة بسعادة: المهم رجعت يا أخي، وصار

عندك حذاء آخر جديد.

قهقه الأب ساخراً: وماذا سيفعل بالحذاء؟ هل سيلبسها ويطير؟.

قاطعته الأم: لا يا أبا صالح، إلا الطيران، لا أريد أن أسمعه بعد اليوم، فصالح حلم بأنه يطير، وأصرّ على السفر.

ضحكوا جميعاً، وقد أخبرهم صالح بأن سيحقق أحلامه القديمة، سيجعل من قريته أجمل القرى في العالم، وسيقصدها الناس من القرى المجاورة، للدراسة والعلاج والرزق.

أنشأ الفتى صالح مدرستين، واحدة للأولاد، والأخرى للبنات، وجامعاً واسعاً، ومستوصفاً كبيراً يعمل فيه طبيب وطبيبة، كما أنشأ مصنعاً جميلاً جعل أهل القرية يعملون فيه، كان المصنع يقوم بشراء القمح من الفلاحين، ويطحنه، ثم يصنع منه الخبز والكعك والبسكويت. كما لم ينس بأن يبني مصنعاً صغيراً، يقوم بتصنيع أجمل الأحذية النجدية الجلدية الملوَّنة.

وقبل أن ينام ذات ليلة، وبينما هو يشعر براحة عظيمة، وضعت أمه قرب رأسه جرَّة ماء، فهمس لأمه قائلاً: هل تعلمين يا أمي ماذا يقول الهندي موهانداس؟ كان يقول إن أفضل طريقة لتجد نفسك، هو أن تفني نفسك في خدمة الآخرين. قبَّلت أمه رأسه وهي تقول بأنها هي أيضاً تشعر

بالسعادة حين يقصدها الآخرون، وتساعدهم. ثم أضافت بعد لحظة تردد: كلما أردت أن أسألك عن أمر يا بني، أتردد كثيراً، لأنني أخشى أن يحزنك سؤالي، وأنا لا أقوى على حزنك.

فاعتدل صالح، وجلس أمام أمه باهتمام، وطلب منها أن تسأل عما تريد دون تردد.

أجابت بأنها لا تريد شيئاً، فالخير كثير ووافر، ولكنها تفكر أحياناً بالحذاء الفضي، كيف أهداك الرجل الغريب فردة واحدة، ثم عدت بالفردة الثانية؟.

تنهد بقوة، وتسللت من عينيه دمعتان صغيرتان، وهو يتذكر الرجل الغريب ببشته الرمادي وحذائه الفضي، وقصَّ عليها كيف بخل عليه أهل قريته بكفن يستره في القبر، وجاء إليه فجراً في دكانه يبحث عن كفن أبيض يستره في قبره.

سكت قليلاً ثم أضاف: أهداني الحذاء ونصحني بالسفر، ربما كان يقصد أن أسافر إلى قريته القريبة، لكن كانٍ عليَّ أن أقطع البحار، والصحارى الموحشة، كي أجد رجلاً هندياً على حافة نهر يطعم الأسماك ولا يصطادها، كي يعلّمني الحكمة، ويمنحني كتاب الملحمة الهندية القديمة، قبل أن يصف لي بيت الرجل الغريب في القرية المجاورة لقريتنا، ذلك البيت الكبير الذي طمع فيه أهل القرية البخلاء، وكلما

دخله أحدهم مات، لأنه يشرب ماءً مسموماً، حتى وفقني الله ودخلته، فعثرت على الأفعى التي تقذف السم في الماء، وهي تحرس صندوق الكنز، وقتلتها.

سرح صالح ببصره نحو السماء: هل تعرفين يا أمي الغالية، أشعر أن هذا هو تفسير حلمي قبل عام، حينما حلمت بالذبيحة المعلقة، والأمعاء التي تشبه سلسلة الصندوق، والروث الذي هو المجوهرات واللؤلؤ...

ثم تذكر وهو يهمس في سكون الليل المعتدل، لقد تذكرت أن ابن سيرين يقول في تفسيره إن من رأى نفسه يكنس روث الحيوانات، فسينال مالاً من رجل شريف، وهذا ما حدث لي، يا الله، ما هذه الحوادث الغريبة!.

كان الفتى صالح الخرَّاز مأخوذاً بما حدث له وهو يروي قصته لأمه في ليل خريفي، مزدان بالنجوم والهواء العليل.

وكنت أنا مأخوذاً بالحكاية، وقد عشت لأرويها لكم، وكأنها إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، بل كأنها الليلة الثانية بعد الألف، الليلة التي سقطت من نسخة الليالي المطبوعة في (كلكتا) الهندية.

الرياض – 2012م

عن الكاتب

يوسف المحيميد: روائي وقاص، ترجمت أعماله إلى سبع لغات، وحصدت العديد من الجوائز، أبرزها جائزة أبو القاسم الشابي التونسية، وجائزة ألزياتور الإيطالية (Alziator Prize)، والقائمة القصيرة لجائزة جان ميشالسكي السويسرية (Jan Michalski Prize). كما تم منح فصل من رواية (القارورة) جائزة (Pushcart Prize) الأمريكية، وتم نشره ضمن أفضل النصوص لعام 2009م في الولايات المتحدة الأمريكية.

صدرت له عدة مجموعات قصصية منها (أخي يفتش عن رامبو)، و(الأشجار لم تعد تسمعني)، وعدة روايات، منها (فخاخ الرائحة)، (القارورة)، (نزهة الدلفين)، و(الحمام لا يطير في بريدة)، وعدة قصص للأطفال، منها (سلسلة مغامرات الأشجار)، (قلم أسود في غابة الألوان)، (العكاز العجيب)، و(ليلى والسجادة الحمراء).

موقعه الشخصي على الإنترنت:

www.al-mohaimeed.net

رحلة الفتى النجدي

رواية للفتيان

الحكايات تتكرر على مرِّ الزمان، يموت أبطالها، ويذهبون في النسيان، لكن الحكاية تبقى حيَّة لا تموت، ترويها الجدات اللطيفات لأحفادهن قبيل النوم، وقد تتنقَّل في بيوت الشَّعر في الصحراء خلال ليالي الخريف الباردة، أو في مجالس الرجال في البيوت الطينية، ثم يأتي من يدوِّن الحكاية على ورق أبيض، أو أصفر كامد، أو حتى على رقٍّ جلديٍّ قديم، فتطوف بين الأيدي والقلوب، كما انتقل رقُّ الملحمة الهندية العتيقة من عجوز النهر إلى بطل روايتنا هذه، ليعبر البحار والصحارى الموحشة، من يدري، فقد تتنقل حكايتنا هذه مثل هذا الرقّ المسحور من بلد إلى آخر، ومن بيت ثري إلى آخر، ومن متحف إلى آخر، ومن يدري، فقد تُحفظ هذه الحكاية الغريبة التي سأرويها لكم الآن، ذات يوم، في متحف ضخم، يرتاده البشر من كل أنحاء العالم، ومن يدري أيضاً، فقد تتنقل هذه الحكاية، من لغة إلى أخرى، ولا تعود مجرد حكاية نجدية يهبُّ فيها الهواء النجدي المعتدل، فتتأرجح وهي تطير مع حبيبات الرمل الذهبية، لتموت قبل أن تبلغ ساحل البحر!.

يوسف المحيميد

• روائي وكاتب من السعودية


ISBN 978-614-01-0694-9




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



تصميم الغلاف: سامح خلف